بغية الإنسان في وظائف رمضان

للحافظ أبي الفرج عبد الرحمن بن رجب الحنبلي

المكتب الإسلامي

المكتب الإسلامي
بيروت : ص . ب ١١/٣٧٧١ ـ هاتف ٤٥٠٦٣٨ ـ برقياً : اسلاميا
دمشق : ص . ب ٨٠٠ ـ هاتف ١١١٦٣٧ ـ برقياً : اسلامي

مقدمة الناشر

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتُنَّ إلا وأنتم مسلمون ﴾[1]، ﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها، وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيبا ﴾[2]، ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولاً سديدا. يُصلحْ لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيما ﴾[3].

أما بعد، فإن الوعظ والتذكير، من مهمات الدعوة الإسلامية، بل وغيرها من الدعوات. وقد حث الله سبحانه عليه في كثير من آيات كتابه الكريم، آمراً نبيه صلوات الله عليه بالقيام به في مثل قوله تعالى : ﴿ فذكر إنما انت مذكر ﴾[4].

وقام صلى الله عليه بالواجب خير قيام، فأدى الأمانة وبلغ الرسالة.

وكذلك قام الصحابة الكرام، بما عليهم من واجب إيصال الخير للناس،

---

(١) سورة آل عمران الآية ١٠٢.
(٢) سورة النساء الآية ١.
(٣) سورة الأحزاب الآيتان ٧٠، ٧١.
(٤) سورة الغاشية الآية ٢١

وبهم ومنهم عرف الدِّين، ونُقل العلم، وقد اختص بعضهم بالتذكير والوعظ، كما اختص بعضهم بالأحكام والفرائض، أو التفسير، أو نقل الحديث.

ثم جاء من بعدهم من تابع ذلك، فكان خيرٌ كثير.

غير أن بعض الذين جاؤوا بعد عصور الخير التي شَهِدَ لها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، أُناس خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً. فاختلط الخير بالشر والدِّين بالبدعة، والحق بالباطل... فكثر القصاص المحترفون، ودس بعضهم — أو دُسّ عليهم — من المرققات ما لا أصل له.. واستغلت قاعدة « العمل بالحديث الضعيف في فضائل الأعمال » على غير الوجه الذي أراده علماء الأمة الأفاضل... فدخل في الأذكار والعبادات والأعمال، بل وحتى في الاعتقادات، ما ليس من العمل الصحيح. او الاعتقاد السليم... وأدخل في الحديث الضعيف — عند مصطلح علماء هذا الفن الشريف — الأحاديث الموضوعة والمكذوبة، وما لا أصل له، إلا في الإسرائيليات، وما ترسب من عادات الكفار من عبدة الأشخاص والأوثان.[1]

وهذه المواعظ التي لا أصل لها لا يكاد يخلو منها كتاب، وإنما تتفاوت بالكثرة والقلة. بل إنك تجد في مثل « الإحياء » للإمام الغزالي مع غزارة علمه، ووفرة عقله، وحُسن عرضه، ودقة فهمه : مرتعاً للبدع التي ما زالت سائدة حتى يومنا هذا، يتناقلها الناس، وقل المنبه والمحذر. وما اكثر المبرر والمعتذر !!

وكان الامام الغزالي أول من تنبه لهذا، فرجع بعد « الإحياء » يدرس الحديث النبوي، ومات وصحيح البخاري على صدره.

ومثال واحد يدلك على بطلان ما جاء في كثير من كتب الوعظ هو : أنك لو أردت العمل بكل ما جاء فيها من فضائل أعمال اليوم والليلة، وما أوجبوه من صلوات وأدعية وأذكار، لما كفاك اليوم بليله ونهاره، ولو كان

---

(١) أنظر لمعرفة ذلك الكتب الآتية فإنها تدلك على الكثير من الخير — على أن في بعضها هِنات — « البدع والنهي عنها » لابن وضاح. « البدع والحوادث » للطرطوشي. « الابداع في مضار الابتداع » لمحفوظ. « المدخل » لابن الحاج. « القصاص والمذكرين » لابن الجوزي. « تحذير الخواص من أكاذيب القصاص » للسيوطي. « أحاديث القصاص » لابن تيمية. « الباعث على الخلاص » للعراقي.
وهذه الأربعة من مطبوعات المكتب الاسلامي بتحقيق الاستاذ محمد بن لطفي الصباغ.
ورسالة « مساجلة علمية» للعز ابن عبد السلام وابن الصلاح بتحقيقي مع استاذنا الألباني.

اليوم ألف ساعة، بدلاً من أربع وعشرين !!

ناهيك مما نقل في التراجم : عن صلاة فلان كل ليلة ألف ركعة.. وأنه كذا ختمه.. وو.. والخ.

ولو كانت هذه العبادات المزعومة لا تشغل سوى ساعات الليل والنهار، فأين أوقات العمل والكسب، والنوم والراحة، والجهاد والأمر بالمعروف، وتربية الأهل والأولاد، وما يعتري البشر من صحة، ومرض، وسفر،.. الخ. من هذا تعلم أنها من عند غير الله، الذي ﴿لا يكلف الله نفساً إلا وسعها﴾[1]، وسنة رسول الله ﷺ « أصوم وأفطر.. فمن رغب عن سنتي فليس مني »[2].

والإمام المؤلف ابن رجب سار في مواعظه الرمضانية هذه، على نهج وسط إجمالاً، فمع أنه يورد الصحيح، فلم يخل كتابه من الضعيف المردود الذي يُعجب العامة، ويُرغب في الخير على ما عهدوه، ولكن لورعه ومنهج مذهبه الحنبلي، وعلمه الغزير لم يترك التنبيه على الضعيف في أكثر الأحيان.

وظني ان ابن رجب كتب هذه المواعظ وألقاها في المساجد أيام رمضان. واثناء الوعظ كان يزيد فيها، أو ينقص منها، ويقوم بعضهم بنسخها. لذلك نجد في أصولها كثرة التباين.

وأسلوبه فيها يغلب عليه السجع ــ الذي كانت سوقه رائجة ــ المستساغ غالب الأحيان ــ كما أن فيها الكثير من شعره ــ وهو شعر الفقهاء وبعضه اشبه ما يكون بالكلام غير أنه موزون ومقفى ويسهل حفظه على العامة.. كما فيها القليل من شعر غيره.

وكتابه هذا « بغية الإنسان في وظائف رمضان » استُل من أصله « لطائف المعارف ».

وهو يدور على المواعظ في الأيام والشهور.

وكان إفراد « بغية الإنسان » قديماً، لأنني وجدت بعض نسخه مخطوطة مفردة قديماً. كما وجدت ضمن « لطائف المعارف » وهذا كثير في كتب

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٨٦.

(٢) انظر كتاب « السنّة » لابن أبي عاصم رقم ٦٢. طبع المكتب الاسلامي.

الأقدمين، وعلى الأخص في كتب المواعظ وما إليها.

وقد سبق ان طبعت « بغية الإنسان » في الهند في أواخر القرن الماضي، وقمت على طبعها منذ ثلاثين سنة تقريباً.

غير أني ـــ وقد كثر الطلب لها ـــ أعدتُ النظر فيها، وعملت على تهذيبها وحذف بعض المكرر منها، وما لا حاجة للقارىء به، وما وقع في نفسي أنه مدسوس على ابن رجب، وما حذفت ليس مما أجمعت عليه النسخ التي تيسر لي الاطلاع عليها.

وكان اكثر هذا في « الفصل الخامس » حيث أورد من أحاديث ليلة القدر وما جاء فيها، وفي علاماتها، والحكايات والمنامات عنها، المكررات، وما لا أصل له البتة. وأبقيت منها ما يكفي ويفي.

وبذلك بقي البحث آخذاً مجراه العلمي المتناسب مع جلالة قدر الإمام ابن رجب، وكافياً للقارىء والمستمع.

ومن أراد معرفة هذا المكرر، فإنه يجده في طبعتنا السابقة. كما يجده في « لطائف المعارف » وهما مطبوعان متداولان.

وقد قمت بترقيم الآيات وعزوها للمصحف، كما خرجت الكثير من الأحاديث التي أوردها، تاركاً ما كان في الصحيحين أو أحدهما، أو ذكر المؤلف مخرجه أو درجته، أو عُرفت صحته، كما أضفت بعض مقدمته التي في « لطائف المعارف » لأن من سبق وأفرد « بغية الانسان » لم يذكر لها مقدمة. كما ترجمت لبعض الرجال حيث وجدت لذلك سبباً.

وختاماً أرجو الله سبحانه، ان يتقبل منا صيامنا وقيامنا، وأن يجعلنا والقارىء الكريم من أهل طاعته، والحائزين على مغفرته إنه نعم المولى ونعم النصير.

وآخر دعوانا إن الحمد لله رب العالمين.

بيروت الخامس من رجب الفرد ١٤٠٥

زهير الشاويش

بسم الله الرحمن الرحيم

وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب، اللهم إنّا نسألك الاعانة والتوفيق، والهداية إلى أقوم طريق.

الحمد لله الملك القهار، العزيز الجبار، الرحيم الغفار، مقلب القلوب والأبصار، مقدر الأمور كما يشاء ويختار، مكور النهار على الليل، ومكور الليل على النهار، أسبلَ ذيل الليل فأظلم للسكون والإستتار، وأنار منار النهار فأضاء للحركة والانتشار وجعلهما مواقيت الأعمال ومقادير الأعمار، وخلق الشمسَ والقمرَ يجريان بحسبان ومقدار، ويعتقبان في دارة الفلك الدائر على تعاقب الأدوار، وجعلهما معالم يعلم بهما أوقات الليالي والأيام والشهور والأعوام في هذه الدار، ويهتدى بهما الى ميقات الصلاة والزكاة والحج والصيام والإفطار، حجة قائمة قاطعة للاعذار وحكمة بالغة من حكيم عليم ذي اقتدار.

أحمده وحلاوة محامده تزداد مع التكرار، وأشكره وفضله على من شكر مِدرار.

وأشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له شهادة تبرىء القلب من الشرك بصحة الاقرار، وتبوىء قائلها دار القرار.

وأشهد أن محمداً عبده ورسوله البدر جبينه إذا سُرَّ استنار، واليم يمينه[1] فاذا سئل أعطى عطاء من لا يخشى الافقار، والحنيفية دينه الدين القيم المختار، رفع الله ببعثته عن أمته الأغلال والآصار، وكشف بدعوته أذى البصائر وقذى الأبصار، وفرق بشريعته بين المتقين والفجار، حتى امتاز أهل اليمين من أهل اليسار، وانفتحت أقفال القلوب فانشرحت بالعلم والوقار، وزال عن الأسماع أثقال الأوقار، صلى الله عليه وعلى آله أُولى الإقدام والأقدار، وعلى أصحابه أقطاب الأقطار، صلاة تبلغهم بها في تلك الأوطان نهاية الأوطار وسلم تسليما.

(أما بعد) فقد قال الله عز وجل : ﴿ وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا

(١) وفي نسخة « البحر » والمعنى واحد في الدلالة على كرمه صلى الله عليه وآله وسلم.

آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلا من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب ﴾[1].

وقال الله تعالى : ﴿ هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدّره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ﴾[2].

فأخبر سبحانه وتعالى أنه علق معرفة السنين والحساب على تقدير القمر منازل.

وقيل : بل على جعل الشمس ضياء والقمر نوراً، وجعل حساب السنة والشهر يعرف بالقمر. واليوم والأسبوع يعرف بالشمس، وبمعرفة ذلك يتم الحساب.

وقوله تعالى : ﴿ لتعلموا عدد السنين ﴾ لما كان الشهر الهلالي لا يحتاج الى عد لتوفيته بما بين الهلالين لم يقل لتعلموا عدد الشهور، فإن الشهر لا يحتاج الى عده إلا إذا غم آخره فيكمل عدده بالاتفاق إلا في شهر شعبان اذا غم آخره بالنسبة الى صوم رمضان خاصة، فإن فيه اختلافا مشهوراً. وأما السنة فلا بدّ من عددها إذ ليس لها حَدٌّ ظاهرٌ في السماء فيحتاج الى عددها بالشهور، ولاسيما مع تطاول السنين وتعددها. وجعل الله السنة اثنى عشر شهرا كما قال تعالى : ﴿ ان عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا في كتاب الله ﴾[3] وذلك بعدد البروج التي تكمل بدور الشمس فيها السنة الشمسية، فاذا دار القمر فيها كلها كملت دورته السنوية، وانما جعل الله الاعتبار بدور القمر، لأن ظهوره في السماء لا يحتاج الى حساب ولا كتاب، بل هو أمر ظاهر يشاهد بالبصر بخلاف سير الشمس، فإنه تحتاج معرفته إلى حساب وكتاب، فلم يحوجنا الى ذلك، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم :

« انا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب الشهر هكذا وهكذا وهكذا » وأشار بأصابعه العشر وختم ابهامه في الثالثة « صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته فإن غم عليكم فاكملوا العدة »[4].

---

(١) سورة الاسراء الآية ١٢.

(٢) سورة يونس الآية ٥.

(٣) سورة التوبة الاية ٣٦.

(٤) أنظر « مختصر صحيح مسلم » رقم ٥٧٤ و٥٧٦. طبع المكتب الاسلامي.

وانما علق الله تعالى على الشمس أحكام اليوم من الصلاة والصيام حيث كان ذلك أيضا مشاهدا بالبصر لا يحتاج الى حساب ولا كتاب فالصلاة تتعلق بطلوع الفجر وطلوع الشمس وزوالها وغروبها ومصير ظل الشيء مثله وغروب الشفق.

والصيام يتوقت بمدة النهار من طلوع الفجر الى غروب الشمس.

وقوله تعالى: ﴿والحساب﴾ يعني بالحساب حساب ما يحتاج اليه الناس من مصالح دينهم ودنياهم كصيامهم وفطرهم وحجهم وزكاتهم ونذورهم وكفاراتهم وعدد نسائهم، ومدد إيلائهم، ومدد إجاراتهم، وحلول آجال ديونهم وغير ذلك مما يتوقت بالشهور والسنين.

وقد قال الله عز وجل: ﴿يسألونك عن الاهلة قل هي مواقيت للناس والحج﴾ .[1]

فأخبر ان الأهلة مواقيت للناس عموما وخص الحج من بين ما يوقت به للإهتمام به وجعل الله سبحانه وتعالى في كل يوم وليلة لعباده المؤمنين وظائف موظفة عليهم من وظائف طاعته، فمنها ما هو فرض كالصلوات الخمس، ومنها ما يندبون اليه من غير افتراض كنوافل الصلاة والذكر وغير ذلك.

وجعل في شهور الأهلة وظائف موظفة أيضا على عباده كالصيام والزكاة والحج، ومنه فرض مفروض عليهم كصيام رمضان وحجة الاسلام. ومنه ما هو مندوب كصيام شعبان وشوال والأشهر الحُرم، وجعل الله سبحانه لبعض الشهور فضلا على بعض كما قال تعالى:

﴿منها أربعة حرم ذلك الدين القيم فلا تظلموا فيهن أنفسكم﴾ .[2]

وقال الله تعالى: ﴿الحج أشهر معلومات﴾ .[3]

وقال الله تعالى: ﴿شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن﴾ .[4]

كما جعل بعض الأيام والليالي أفضل من بعض، وجعل ليلة القدر خيرا من

---

(١) سورة البقرة الآية ١٨٩.

(٢) سورة التوبة الآية ٣٦.

(٣) سورة البقرة الآية ١٩٧.

(٤) سورة البقرة الآية ١٨٥.

ألف شهر، وأقسم بالعشر وهو عشر ذي الحجة على الصحيح

وما من هذه المواسم الفاضلة موسم إلا ولله تعالى فيه وظيفة من وظائف طاعاته يتقرب بها إليه، ولله فيها لطيفة من لطائف نفحاته يصيب بها من يشاء بفضله ورحمته عليه، فالسعيد من اغتنم مواسم الشهور والأيام والساعات، وتقرب فيها الى مولاه بما فيها من وظائف الطاعات فعسى أن تصيبه نفحة من تلك النفحات، فيسعد بها سعادة يأمن بعدها من النار وما فيها من اللفحات.

وقد خرج ابن أبي الدنيا والطبراني وغيرهما من حديث أبي هريرة مرفوعاً: « اطلبوا الخير دهركم وتعرضوا لنفحات رحمة ربكم، فإن لله نفحات من رحمته يصيب بها من يشاء من عباده، وسلوا الله أن يستر عوراتكم ويؤمن روعاتكم ».

وفي رواية للطبراني من حديث محمد بن مسلمة مرفوعا:

« ان لله في أيام الدهر نفحات، فتعرضوا لها فلعل أحدكم أن تصيبه نفحة فلا يشقى بعدها أبدا ».

وفي مسند الامام أحمد عن عقبة بن عامر عن النبى صلى الله عليه وسلم قال: « ليس من عمل يوم الا يختم عليه » (١).

وروى ابن أبي الدنيا باسناده عن مجاهد قال: « ما من يوم إلا يقول: ابنَ آدم قد دخلتُ عليك اليوم ولن ارجع اليك بعد اليوم، فانظر ماذا تعمل فيَّ، فاذا انقضى طواه، ثم يختم عليه فلا يفك حتى يكون الله هو الذي يفض ذلك الخاتم يوم القيامة، ويقول اليوم حين ينقضي: الحمد لله الذي أراحني من الدنيا وأهلها. ولا ليلة تدخل على الناس الا قالت كذلك ».

وبإسناده عن مالك بن دينار قال: كان عيسى عليه السلام يقول:

« ان هذا الليل والنهار خزانتان فانظروا ما تضعون فيهما ».

---

(١) هو في المسند ١٤٦/٤ طبع المكتب الاسلامي بلفظ: « ليس من عمل يوم إلا وهو يُختم عليه، فإذا مرض المؤمن قالت الملائكة: يا ربنا عبدك فلان قد صبته ؟ فيقول الرب عزّ وجل: اختموا له على مثل عمله حتى يبرأ، أو يموت.

وكان يقول : « اعملوا الليل لما خلق له واعملوا النهار لما خلق له

وعن الحسن[1] قال ليس يوم يأتي من أيام الدنيا الا يتكلم يقول : يا أيها الناس اني يوم جديد، واني على ما يعمل فيَّ شهيد، واني لو قد غربت الشمس لم أرجع اليكم الى يوم القيامة.

وعنه أنه كان يقول : يا ابن آدم اليوم ضيفك والضيف مرتحل يحمدك أو يذمك، وكذلك ليلتك.

وباسناده عن بكر المزني[2] أنه قال :

ما من يوم أخرجه الله الى أهل الدنيا إلّا ينادي ابنَ آدم اغتنمني لعله لا يوم لك بعدي، ولا ليلة إلا تنادي : ابنَ آدم اغتنمني لعله لا ليلة لك بعدي.

وعن عمر بن ذر[3] انه كان يقول : « اعملوا لأنفسكم رحمكم الله في هذا الليل وسواده، فإن المغبون من غبن خير الليل والنهار، والمحروم من حرم خيرهما انما جعلا سبيلا للمؤمنين الى طاعة ربهم ووبالا على الآخرين للغفلة عن أنفسهم، فأحيوا لله أنفسكم بذكره، فإنما تحيا القلوب بذكر الله عز وجل.

عن أبي موسي الأشعري رضي الله عنه قال قال : رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكر ربه مثل الحي والميت »

كم من قائم لله في هذا الليل قد اغتبط بقيامه في ظلمة حفرته وكم من نائم في هذا الليل قد ندم على طول نومه عندما يرى من كرامة الله عز وجل للعابدين غدا فاغتنموا ممر الساعات والليالي والأيام رحمكم الله.

وعن داود الطائي[4] انه قال : إنما الليل والنهار مراحل ينزلها الناس مرحلة مرحلة حتى ينتهي بهم ذلك الى آخر سفرهم، فإن استطعت أن تقدم في كل

---

(١) هو الحسن بن يسار البصرى تابعي جليل، فقيه شجاع زاهد توفي في البصرة سنة ١١٠هـ.

(٢) هو بكر بن عبد الله المزني البصري، ثقة جليل توفي ١٠٦ هـ.

(٣) هو عمر بن ذر المرهبي، ثقة. وانظر « مسائل الامام أحمد لابن هانيء » ٢/٢١٧، ٢٤٠، ٢٤١. طبع المكتب الاسلامي.

(٤) هو داود بن نصير، من أهل العبادة والزهد والأمر بالمعروف توفي سنة ١٦٥ هـ.

مرحلة زادا لما بين يديها فافعل، فإن انقطاع السفر عن قريب ما هو، والأمر أعجل من ذلك، فتزود لسفرك واقض ما أنت قاض من أمرك، فكأنك بالأمر قد بغتك.

قال ابن أبي الدنيا وأنشدنا محمود بن الحسين. [1]

مضى أمسك الماضي شهيداً معدلا	وأعقبــه يوم علــيك جديــدُ
فيومك إن أغنيتــه عاد نفعــه	عليك وماضي الأمسَ ليسَ يعود
فان كنت بالأمس اقترفت إساءة	فثــن بإحسان وأنت حميــد
فلا تُرجِ فعل الخير يوماً الى غد	لعل غدا يأتــي وأنتَ فقيــد

وفي تفسير عبد بن حميد وغيره من التفاسير المسندة عن الحسن في قول الله عز وجل ﴿وهو الذي جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا﴾ [2]

قال : من عجز بالليل كان له من أول النهار مستعتب، ومن عجز بالنهار كان له من الليل مستعتب.

وعن قتادة قال : ان المؤمن قد ينسى بالليل ويذكر بالنهار، وينسى بالنهار ويذكر بالليل، قال وجاء رجل الى سلمان [3] قال : لا أستطيع قيام الليل.

قال له : فلا تعجز بالنهار.

قال قتادة : فأدوا الى الله من أعمالكم خيراً في هذا الليل والنهار، فانهما مطيتان تقحمان الناس الى آجالهم يقربان كل بعيد، ويبليان كل جديد، وتجيئان بكل موعود، الى يوم القيامة.

---

(١) هو الشاعر الكبير محمود بن حسن الوراق، توفي سنة ٢٢٥ هـ.

(٢) سورة الفرقان الآية ٦٢.

(٣) لعله الصحابي الجليل : سلمان الفارسي توفي سنة ٣٦ هـ ودفن قرب بغداد.

وظائف شهر رمضان المعظم
وفيه مجالس
المجلس الاول في فضل الصيام

ثبت في « الصحيحين » عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال : « كل عمل ابن آدم له، الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمئة ضعف ».

قال الله عز وجل في الحديث القدسي : « إلا الصيام فإنه لي وأنا أجزي به، إنه ترك شهوته وطعامه وشرابه من أجلي، للصائم فرحتان : فرحة عند فطره، وفرحة عند لقاء ربه، ولخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك ». وفي رواية : « كل عمل ابن آدم له، إلا الصيام فإنه لي »[1] وفي رواية للبخاري : « لكل عمل كفارة، والصوم لي وأنا أجزي به ».

وخرجه الإمام أحمد من هذا الوجه، ولفظه « كل عمل ابن آدم له كفارة، إلا الصوم، والصوم لي، وأنا أجزي به ».

فعلى الرواية الأولى : يكون استثناء الصوم من الأعمال المضاعفة، فتكون الأعمال كلها تضاعف بعشر أمثالها إلى سبعمئة ضعف، إلا الصيام، فإنه لا ينحصر تضعيفه في هذا العدد، بل يضاعفه الله عز وجل أضعافاً كثيرة بغير حصر عدد، فإن الصيام من الصبر. وقد قال الله تعالى : ﴿ إنما يوفَّى الصابرون أجرهم بغير حساب ﴾[2]

ولهذا ورد عن النبي ﷺ، أنه سمى شهر رمضان « شهر الصبر »[3]

---

(١) وهي في « الصحيحين » أيضاً. أنظر « مختصر صحيح البخاري » ٩٢٢، و« مختصر صحيح مسلم » ٥٧١، وهما للألباني، طبع المكتب الاسلامي.

(٢) سورة الزمر الآية ١٠.

(٣) أي في الحديث القدسي.

وفي حديث آخر عنه ﷺ قال: « الصوم نصف الصبر » خرجه الترمذي.

والصبر ثلاثة أنواع: صبر على طاعة الله، وصبر على محارم الله، وصبر على أقدار الله المؤلمة.

وتجتمع الثلاثة كلها في الصوم، فإن فيه صبراً على طاعة الله، وصبراً عما حرم الله على الصائم من الشهوات، وصبراً على ما يحصل للصائم فيه من ألم الجوع والعطش، وضعف النفس والبدن.

وهذا الألم الناشيء من أعمال الطاعات يثاب عليه صاحبه، كما قال الله تعالى في المجاهدين: ﴿ ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة في سبيل الله ولا يطؤون موطئاً يغيظ الكفار ولا ينالون من عدو نيلاً إلا كتب لهم به عمل صالح إن الله لا يضيع أجر المحسنين ﴾[١].

وفي حديث سلمان المرفوع الذي أخرجه ابن خزيمة في « صحيحه » في فضل شهر رمضان « وهو شهر الصبر، والصبر ثوابه الجنة ».[٢]

وفي الطبراني عن ابن عمر مرفوعاً « الصيام لله لا يعلم ثواب عمله إلا الله عز وجل » وروي مرسلا وهو أصح.

واعلم أن مضاعفة الأجر للأعمال تكون بأسباب:

منها شرف المكان المعمول فيه ذلك العمل كالحرم، ولذلك تضاعف الصلاة في مسجدَي مكة والمدينة. كما ثبت ذلك في الحديث الصحيح عن النبي ﷺ قال: « صلاة في مسجدي هذا خير من ألف صلاة فيما سواه من المساجد إلا المسجد الحرام » وفي رواية « فإنه أفضل »، وكذلك روي « أن الصيام يضاعف بالحرم ».

وفي « سنن ابن ماجه »[٣] باسناد ضعيف، عن ابن عباس مرفوعاً: « من

---

(١) سورة التوبة الآية ١٢٠.

(٢) هو قطعة من حديثه، وفيه علي بن زيد بن جدعان وهو ضعيف.
وقال ابن حبان في أوله: ان صح الخبر، أنظر «صحيح ابن خزيمة» ٣/ ١٩١ بتحقيق الدكتور محمد مصطفى الأعظمي طبع المكتب الاسلامي.

(٣) أنظر « سنن ابن ماجه » برقم ٣١٥٤. بتحقيق الصديق الدكتور محمد مصطفى الأعظمي.

أدرك رمضان بمكة فصامه وقام منه ما تيسر، كتب الله له مائة ألف شهر رمضان فيما سواه » وذكر له ثواباً كثيراً.

ومنها شرف الزمان، كشهر رمضان، وعشر ذي الحجة، وفي حديث سلمان الفارسي المرفوع الذي أشرنا إليه في فضل شهر رمضان « من تطوع فيه بخصلة من خصال الخير كان كمن أدى فريضة فيما سواه، ومن أدى فيه فريضة كان كمن أدى سبعين فريضة فيما سواه ».

وفي الترمذي عن أنس : سئل النبي ﷺ : أي الصدقة أفضل ؟ قال : « صدقة في رمضان ».

وفي « الصحيحين » عن النبي ﷺ قال : « عمرة في رمضان تعدل حجة، أو قال : حجة معي ».

وورد في حديث آخر « إن عمل الصائم يضاعف » وذكر أبو بكر ابن أبي مريم عن أشياخه أنهم كانوا يقولون : إذا حضر شهر رمضان فانبسطوا فيه بالنفقة. فإن النفقة فيه مضاعفة كالنفقة في سبيل الله، وتسبيحة فيه أفضل من ألف تسبيحة في غيره.

قال النخعي(١) : صوم يوم من رمضان أفضل من ألف يوم، وتسبيحة فيه أفضل من ألف تسبيحة، وركعة فيه أفضل من ألف ركعة.

فلما كان الصيام في نفسه مضاعفاً أجره بالنسبة إلى سائر الأعمال، كان صيام شهر رمضان مضاعفاً على سائر الصيام، لشرف زمانه، وكونه هو الصوم الذي فرضه الله على عباده، وجعل صيامه أحد أركان الإسلام التي بني الإسلام عليها.

وقد يضاعف الثواب بأسباب أُخر :

منها شرف العامل عند الله، وقربه منه، وكثرة تقواه، كما ضوعف أجر هذه الأمة على أجور من قبلهم من الأمم، وأعطوا كفلين من الأجر.

وأما على الرواية الثانية(٢)، فاستثناء الصيام من بين الأعمال يرجع إلى أن

---

(١) هو الامام ابراهيم بن يزيد النخعي، التابعي الجليل، والفقيه الراوية، المتوفى سنة ٩٦هـ.

(٢) لحديث « كل عمل ابن آدم ... » المتقدم. الصفحة ١٣.

سائر الأعمال للعباد، والصيام اختصه الله تعالى لنفسه من بين أعمال عباده، وأضافه إليه، وسيأتي ذكر توجيه هذا الاختصاص إن شاء الله تعالى.

وأما على الرواية الثالثة، فالاستثناء يعود إلى التفكير بالأعمال.

ومن أحسن ما قيل في ذلك. ما قاله سفيان بن عُيَيْنَة[1] رحمه الله قال :

هذا من أجود الأحاديث وأحكمها، إذا كان يوم القيامة يحاسب اللهُ عبده، ويؤدي ما عليه من المظالم من سائر عمله، حتى لا يبقى إلا الصوم، فيتحمل الله عز وجل ما بقي عليه من المظالم، ويدخله بالصوم الجنة.

خرجه البيهقي في « شُعَب الإيمان » وغيره.

وعلى هذا فيكون المعنى : إن الصيام لله عز وجل، فلا سبيل لأحد إلى أخذ أجره من الصيام، بل أجره مدخر لصاحبه عند الله عز وجل. وحينئذ فقد يقال : إن سائر الأعمال قد يكفر بها ذنوب صاحبها، فلا يبقى لها أجر، فإنه روي : أنه يوازن يوم القيامة بين الحسنات والسيئات، ويقص بعضها من بعض، فإن بقي من الحسنات حسنة، دخل بها صاحبها الجنة، قاله سعيد بن جبير وغيره.

وفيه حديث مرفوع خرجه الحاكم من حديث ابن عباس مرفوعاً، فيحتمل أن يقال في الصوم : إنه لا يسقط ثوابه بمقاصة ولا غيرها، بل يوفر أجره لصاحبه حتى يدخل الجنة، فيوفَّى أجره فيها.

وأما قوله تعالى[2] : « فإنه لي » فإن الله خص الصيام بإضافته إلى نفسه دون سائر الاعمال.

وقد كثر القول في معنى ذلك من الفقهاء والصوفية وغيرهم، وذكروا فيه وجوهاً كثيرة، ومن أحسن ما ذكر فيه وجهان :

الوجه الأول : أن الصيام هو مجرد ترك حظوظ النفس وشهواتها الأصلية التي جبلت على الميل إليها لله عز وجل، ولا يوجد ذلك في عبادة أخرى غير الصيام.

---

(١) هو العالم الجليل سفيان بن عيينة، محدث الحرم المكي، الفقيه الثقة، المتوفى سنة ١٩٨ هـ.

(٢) أي في الحديث القدسي المتقدم ص ١٣.

لأن الاحرام إنما يترك فيه الجماع ودواعيه من الطيب، دون سائر الشهوات من الأكل والشرب. وكذلك الاعتكاف مع أنه تابع للصيام.

وأما الصلاة، فإنه وإن ترك المصلي فيها جميع الشهوات، إلا أن مدتها لا تطول، فلا يجد المصلي فقد الطعام والشراب في صلاته، بل قد نهي أن يصلي ونفسه تتوق إلى طعام بحضرته حتى يتناول منه ما يسكّن نفسه، ولهذا أمر بتقديم العَشاء على الصلاة، وذهبت طائفة من العلماء إلى إباحة شرب الماء في صلاة التطوع، وكان ابن الزبير يفعله في صلاته، وهو رواية عن الامام أحمد.

وهذا بخلاف الصيام، فإنه يستوعب النهار كله، فيجد الصائم فقد هذه الشهوات، وتتوق نفسه إليها، خصوصاً في نهار الصيف، لشدة حره وطوله، ولهذا روي: إن من خصال الايمان: الصوم في الصيف.

وقد كان رسول الله ﷺ يصوم رمضان في السفر في شدة الحر دون أصحابه، كما قال أبو الدرداء[1]: كنا مع النبي ﷺ في رمضان في سفر وأحدنا يضع يده على رأسه من شدة الحر، وما فينا صائم إلا رسول الله ﷺ وعبدالله بن رواحة.

وفي «الموطأ»: أنه ﷺ كان بالعُرْج[2] يصب الماء على رأسه وهو صائم من العطش والحر.

فإذا اشتد توقان النفس إلى ما تشتهيه مع قدرتها عليه، ثم تركته لله عز وجل في موضع لا يطَّلع عليه إلا الله، كان ذلك دليلا على صحة الإيمان، فإن الصائم يعلم أن له رباً يطلع عليه في خلوته، وقد حرَّم عليه أن يتناول شهواته المجبول على الميل إليها في الخلوة، فأطاع ربه، وامتثل أمره، واجتنب نهيه، خوفاً من عقابه، ورغبة في ثوابه، فشكر الله تعالى له ذلك، واختص لنفسه عمله هذا من بين سائر أعماله، ولهذا قال بعد ذلك: «إنه

---

(١) هو الصحابي الجليل عويمر بن عامر الأنصاري، الحكيم البليغ، ولاه معاوية قضاء دمشق في خلافة عمر، وكانت وفاته سنة ٣٢.

(٢) اسم يطلق على مواضع متعددة، ولعل المقصود هنا العقبة بين مكة والمدينة، أو القرية الجامعة من عمل الفُرْع على أيامٍ من المدينة.

إنما ترك شهوته وطعامه وشرابه من أجلي ».

قال بعض السلف : طوبى لمن ترك شهوة حاضرة لموعد غيب لم يره.

لما علم المؤمن الصائم أن رضى مولاه في ترك شهوته، قدم رضى مولاه على هواه، فصارت لذته في ترك شهوته لله، لايمانه باطلاع الله. وثوابه وعقابه أعظم من لذته في تناولها في الخلوة، إيثاراً لرضى ربه على هوى نفسه، بل المؤمن يكره ذلك في خلوته أشد من كراهته لألم الضرب، ولهذا كثير من المؤمنين لو ضرب على أن يفطر في شهر رمضان لغير عذر، لم يفعل، لعلمه بكراهة الله لفطره في هذا الشهر، وهذا من علامات الايمان، أن يكره المؤمن ما يلائمه من شهواته إذا علم أن الله يكرهه، فتصير لذته فيما يرضي مولاه، وإن كان مخالفاً لهواه، ويكون ألمه فيما يكرهه مولاه، وإن كان موافقاً لهواه.

وإذا كان هذا فيما حرّم لعارض الصوم من الطعام والشراب، ومباشرة النساء، فينبغي أن يتأكد ذلك فيما حرّم على الإطلاق كالزنا، وشرب الخمر وأخذ الأموال والأعراض بغير حق، وسفك الدماء المحرمة.

فإن هذا يسخطه الله على كل حال، وفي كل زمان ومكان، فإذا كمل إيمان المؤمن كره ذلك كله أعظم من كراهته للقتل والضرب، ولهذا جعل النبي صلى الله عليه وسلم من علاماتِ وجود حلاوة الإيمان : « أن يكره أن يرجع إلى الكفر، بعد أن أنقذه الله منه، كما يكره أن يقذف في النار »[1] .

وقال نبي الله يوسف عليه السلام : ﴿ رب السجن أحب إليَّ مما يدعونني اليه ﴾[2] .

وسئل ذو النون المصري[3]: متى أحب ربي ؟ قال : إذا كان ما يكرهه أمرَّ عندك من الصبر.

---

(1) متفق عليه، أنظر « مشكاة المصابيح » رقم ٨ و« رياض الصالحين » ٣٨٠، وهما من طبع المكتب الاسلامي.

(2) سورة يوسف الاية ٣٣.

(3) هو ثوبان بن ابراهيم، أحد مشايخ التصوف وكان له علم وأدب، وأنكر عليه العلماء أشياء. مات سنة ٢٤٥ هـ.

وقال غيره : ليس من أعلام المحبة أن تحب ما يكرهه حبيبك.

وكثير من الناس يمشي على العوائد دون ما يوجبه الإيمان ويقتضيه، فلهذا كثير منهم لو ضرب، ما أفطر في رمضان لغير عذر، ومن جهالهم من لا يفطر لعذر ولو تضرر بالصوم، مع أن الله يحب منه أن يقبل رخصته، جرياً على العادة، ومع ذلك فقد اعتاد ما حرم الله من الزنا وشرب الخمر، وأخذ الأموال والأعراض والدماء بغير حق، فهذا يجري على عوائده في ذلك كله، لا على مقتضى الإيمان، ومن عمل بمقتضى الإيمان، صارت لذته في مصابرة نفسه، عما تميل نفسه إليه، إذا كان فيه سخط الله، وربما يرتقي إلى أن يكره جميع ما يكرهه الله منه، وينفر منه، وإن كان ملائماً للنفوس، كما قيل :

إن كان رضاكم في سهري فسلامُ اللهِ على وَسَني

وقال آخر : فما لجرح إذا أرضاكمُ ألم[1].

وقال آخر :

عذابي فيكَ عَذبُ وبُعدك فيك قِرب

وأنتَ عندي كروحي بَلْ أنتَ منها أحبُ

حَسْبي مِنَ الحب أني كَمَا تُحبُّ أحِب

الوجه الثاني : أن الصيام سر بين العبد وربه، لا يطلع عليه غيره، لأنه مركب من نية باطنة لا يطلع عليها إلا الله، وترك لتناول الشهوات التي يستخفى بتناولها في العادة، ولذلك قيل : لا تكتبه الحفظة، وقيل : إنه ليس فيه رياء، كذا قاله الإمام أحمد وغيره، وفيه حديث مرفوع مرسل، وهذا الوجه اختيار أبي عبيد وغيره، وقد يرجع إلى الأول، فان من ترك ما تدعوه نفسه إليه لله عز وجل حيث لا يطلع عليه غير من أمره أو نهاه، دلَّ على صحة إيمانه، والله تعالى يحب من عباده أن يعاملوه سراً بينهم وبينه، وأهل محبته يحبون أن يعاملوه سراً بينهم وبينه، بحيث لا يطلع على معاملتهم إياه سواه، حتى كان بعضهم يود لو تمكّن من عبادة لا تشعر بها الملائكة

---

(١) هو المتنبي من قصيدته ألّتي مطلعها :

واحرّ قلباه ممن قلبُه شبِمُ ومن بجسمي وحالي عنده سقَم

وصدره :

ان كان سركم ما قال حاسدنا فما لجرح إذا أرضاكمُ ألم

الحفظة[1]. وقال بعضهم لما اطلع على بعض سرائره : إنما كانت تطيب الحياة لما كانت المعاملة بيني وبينه سراً، ثم دعا لنفسه بالموت فمات.

المحبون يغارون من اطلاع الأغيار على الأسرار التي بينهم وبين من يحبهم ويحبونه.

نسيم صبا نجدٍ متى جئت حاملا تحيَتهم فاطو الحديثَ عن الركب
ولا تذع السرَّ المصون فإنني أغارُ على ذِكر الأحبة من صحبي

وقوله : « ترك شهوته وطعامه وشرابه من أجلي »، فيه إشارة إلى المعنى الذي ذكرناه، وأن الصائم يقرب إلى الله بترك ما تشتهيه نفسه من الطعام والشراب والنكاح، وهذا أعظم شهوات النفس.

وفي التقرب بترك هذه الشهوات بالصيام فوائد :

منها كسر النفس، فإن الشبع والري ومباشرة النساء، تحمل النفس على الأشر والبطر والغفلة.

ومنها تخلي القلب للفكر والذكر، فإن تناول هذه الشهوات قد يقسي القلب ويعميه، وتحول بين العبد وبين الذكر والفكر، ويستدعي الغفلة. وخلو الباطن من الطعام والشراب ينور القلب، ويوجب رقته، ويزيل قسوته ويخليه للذكر والفكر[2].

ومنها : أن الغني يعرف قدر نعمة الله عليه، بإقداره له على ما منعه كثيراً من الفقراء، من فضول الطعام والشراب والنكاح، فإنه بامتناعه من ذلك في وقت مخصوص، وحصول المشقة له بذلك، يتذكر به من منع من ذلك على الإطلاق، فيوجب له ذلك شكر نعمة الله عليه بالغنى، ويدعوه إلى رحمة أخيه المحتاج، ومواساته بما يمكن من ذلك.

ومنها : أن الصيام يضيق مجاري الدم التي هي مجاري الشيطان من ابن آدم، فإن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم، فتسكن بالصيام وساوس

---

(١) ان هذا من الغلو في الأمنيات، والأجمل دائماً الرضى والقبول، بما حكم الله وقضاه، وفيه الخير للعبيد.

(٢) وهذا أيضاً من الغلو، فالله سبحانه تعالى لم يكلفنا بهذا، وانما غرس في فطرة الانسان الميول والرغبات، ولا بدّ من اعطاء كل شيء حقه.

الشيطان، وتنكسر سورة الشهوة والغضب، ولهذا جعل النبي ﷺ الصوم وجاءً[1]، لقطعه عن شهوة النكاح.

واعلم أنه لا يتم التقرب إلى الله تعالى بترك هذه الشهوات المباحة في غير حالة الصيام، إلا بعد التقرب إليه بترك ما حرّم الله في كل حال، من الكذب، والظلم، والعدوان على الناس في دمائهم وأموالهم وأعراضهم، ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم : « من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه » خرجه البخاري.

وفي حديث آخر : « ليس الصيام من الطعام والشراب، إنما الصيام من اللغو والرفث »[2] وقال الحافظ أبو موسى المديني : هو على شرط مسلم.

وقال بعض السلف : أهون الصيام ترك الشراب والطعام.

وقال جابر : إذا صمت فليصم سمعك، وبصرك، ولسانك عن الكذب والمحارم، ودع أذى الجار، وليكن عليك وقَار وسكينة يوم صومك، ولا تجعل يوم صومك ويوم فطرك سواء.

إذا لم يكن في السمع مني تَصاون ... وفي بصري غض وفي منطقي صمت
فحظي إذا من صومي الجوع والظما ... فإن قلت : إني صمت يومي فما صمت

وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « رُبَّ صائم حَظه مِنْ صيامه الجوعَ والعطش، ورب قائم حظه من قيامه السهر »[3].

وسر هذا : أن التقرب إلى الله تعالى بترك المباحات لا يكمل إلا بعد التقرب اليه بترك المحرمات، فمن ارتكب المحرمات ثم تقرب إلى الله تعالى بترك المباحات، كان بمثابة من يترك الفرائض ويتقرب بالنوافل، و إن كان صومه مجزئاً عند الجمهور بحيث لا يؤمر بإعادته، لأن العمل إنما يبطل بارتكاب ما نُهي عنه فيه بخصوصه، دون ارتكاب ما نهي عنه لغير معنى يختص به، هذا هو أصل، عند جمهور العلماء.

---

(١) الوجاء : الترس والحاجز يتقي بها الانسان الضرر.

(٢) رواه ابن خزيمة وابن حبان في « صحيحيهما » والحاكم وقال : صحيح على شرط مسلم.

(٣) رواه ابن ماجه، والنسائي، وابن خزيمة في « صحيحه » والحاكم وقال : صحيح على شرط البخاري.

وفي « مسند الإمام أحمد » : أن امرأتين صامتاً في عهد النبي صلى الله عليه وسلم فكادتا أن تموتا من العطش، فذكر ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فأعرض، ثم ذكرتا له فدعاهما، فأمرهما أن يتقيآ، فقاءتا ملء قدح قيحاً ودماً وصديداً ولحماً عبيطاً. فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « إن هاتين صامتاً عما أحل الله لهما وأفطرتا على ما حرم الله عليهما، جلست إحداهما إلى الأخرى، فجعلتا تأكلان لحوم الناس »[1].

ولهذا المعنى والله أعلم، ورد في القرآن بعد ذكر تحريم الطعام والشراب على الصائم بالنهار، ذكر تحريم أكل أموال الناس بالباطل، فإن تحريم هذا عام في كل زمان ومكان، بخلاف الطعام والشراب، فكان إشارة إلى أن من امتثل أمر الله في اجتناب الطعام والشراب في نهار صومه، فليمتثل أمره في اجتناب أكل الأموال بالباطل، فإنه محرم بكل حال، لا يباح في وقت من الأوقات.

وقوله صلى الله عليه وسلم : « وللصائم فرحتان : فرحة عند فطره، وفرحة عند لقاء ربه » أما فرحة الصائم عند فطره، فإن النفوس مجبولة على الميل إلى ما يلائمها من مطعم ومشرب ومنكح، فإذا امتنعت من ذلك في وقت من الأوقات ثم أبيح لها في وقت آخر، فرحت بإباحة ما منعت منه، خصوصاً عند اشتداد الحاجة إليه، فإن النفوس تفرح بذلك طبعاً، فإن كان ذلك محبوباً لله كان محبوباً شرعاً، والصائم عند فطره كذلك، فكما أن الله تعالى حرم على الصائم في نهار الصيام تناول هذه الشهوات، فقد أذن له فيها في ليل الصيام، بل أحب منه المبادرة إلى تناولها في أول الليل وآخره، فأحب عباده إليه أعجلهم فطراً، والله وملائكته يصلون على المتسحرين. فالصائم ترك شهواته لله في النهار تقرباً إلى الله وطاعة له، وبادر اليها بالليل تقرباً إلى الله و إطاعة له، فما تركها إلا بأمر ربه، ولا عاد إليها إلا بأمر ربه فهو مطيع له في الحالين. ولهذا نهي عن الوصال في الصيام، فإذا بادر الصائم إلى الفطر تقرباً إلى مولاه وأكل وشرب وحمد الله، فإنه تُرجى له المغفرة أو بلوغ الرضوان بذلك.

وفي الحديث « إن الله ليرضى عن عبده أن يأكل الأكلة فيحمده عليها ويشرب

---

(١) رواه أحمد في « المسند » من حديث عبيد مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال الحافظ العراقي : بسند فيه مجهول.

الشربة فيحمده عليها »[1]

وربما استجيب دعاؤه عند ذلك. كما جاء في الحديث المرفوع الذي خرجه ابن ماجه : « إن للصائم عند فطره دعوة لا ترد »[2].

و إن نوى بأكله وشربه تقوية بدنه على القيام والصيام كان مثاباً على ذلك، كما أنه إذا نوى بنومه في الليل والنهار التقوّى على العمل، كان نومه عبادة.

وفي حديث مرفوع : « نوم الصائم عبادة »[3].

قال أبو العالية[4] : الصائم في عبادة ما لم يغتب أحداً، و إن كان نائماً على فراشه، قال : فكانت حفصة تقول. يا حبذا عبادة وأنا نائمة على فراشي. خرجه عبد الرزاق[5]. فالصائم في ليله ونهاره في عبادة، ويستجاب دعاؤه في صيامه وعند فطره، فهو في نهاره صائم صابر، وفي ليله طاعم شاكر.

وفي الحديث الذي خرجه الترمذي وغيره : « الطَّاعِمُ الشَّاكِرُ بمنزلة الصائم الصَّابر »[6].

ومن فهم هذا الذي أشرنا اليه لم يتوقف في معنى فرح الصائم عند فطره، فإن فطره على الوجه المشار اليه من فضل الله ورحمته، فيدخل في قول الله تعالى : ﴿ قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون ﴾[7].

ولكن شرط ذلك أن يكون فطره على حلال، فإن كان فطره على حرام، كان ممن صام عما أحل الله، وأفطر على ما حرم الله، ولم يستجب له دعاء، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم في الذي يطيلُ السفرَ « يمد يديه إلى السماء يا رب يا

---

(١) رواه مسلم عن أنس، انظر «مختصر مسلم» برقم ١٣٠٥.

(٢) رواه ابن ماجه برقم ١٧٥٧. وفي « الزوائد » : اسناده صحيح.

(٣) رواه البيهقي. قال الحافظ العراقي : فيه سليمان النخعي، وهو أحد الكذابين، وروي من طريق آخر ضعيف، ذكرها العراقي في « أماليه ». وفي الجامع الصغير، برقم ٥٩٨٤ زيادة : « وصمته تسبيح، وعمله مُضاعف، ودُعاؤه مستجاب، وذنبه مغفور » وهو ضعيف.

(٤) هو أبو العالية البرّاء البصري، ثقة، توفي سنة ١٩٠ هـ.

(٥) هو في مصنف عبد الرزاق الصنعاني عن أبي العالية برقم ٧٨٩٥، توزيع المكتب الاسلامي.

(٦) أنظر « صحيح الجامع الصغير » برقم ٣٨٣٧.

(٧) سورة يونس الآية ٥٨.

رب، ومطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام وغذي بالحرام، فأنّى يستجاب لذلك »[1].

وأما فرحه عند لقاء ربه فيما يجده عند الله من ثواب الصيام مدخراً، فيجده أحوج ما كان إليه، كما قال تعالى : ﴿ وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيراً وأعظم أجراً ﴾[2].

وقال تعالى : ﴿ يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً ﴾[3].

وقال تعالى: ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ﴾[4].

وقد تقدم قول سفيان بن عيينة : إن ثواب الصيام لا يأخذه الغرماء في المظالم، بل يدخره الله عنده للصائم، حتى يدخله به الجنة.

وفي « المسند » عن عقبُه بن عامر الجُهني عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « ليس من عمل يوم إلا يختم عليه ».

وعن عيسى عليه السلام قال : إن هذا الليل والنهار خزانتان لأهلها، فانظر ماذا تصنعون فيهما، فالأيام خزائن للناس ممتلئة بما خزنوه فيها من خير وشر، وفي يوم القيامة تفتح هذه الخزائن لأهلها، فالمتقون يجدون في خزائنهم العز والكرامة، والمذنبون يجدون في خزائنهم الحسرة والندامة.

طبقات الصائمين[5]:

الطبقة الأولى من الصائمين : من ترك طعامه وشرابه وشهوته لله تعالى، يرجو عنده عوض ذلك في الجنة، فهذا قد تاجر مع الله وعامله، والله تعالى لا يضيع أجر من أحسن عملاً، ولا يخيب معه من عامله، بل يربح عليه أعظم الربح.

وقال رسول الله ﷺ لرجل : « إنك لن تدع شيئاً اتقاء الله تبارك وتعالى

---

(١) رواه مسلم عن أبي هريرة، رضي الله عنه.

(٢) سورة المزمل الآية ٢٠.

(٣) سورة آل عمران الآية ٣٠.

(٤) سورة الزلزال الآية ٨.

(٥) في بعض الأصول : الصائمون على طبقتين.

إلا آتاك الله خيراً منه » خرجه الإمام أحمد[1].

فهذا الصائم يعطى في الجنة ماشاء الله من طعام وشراب ونساء.

قال الله تعالى : ﴿ كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم في الأيام الخالية ﴾[2].

قال مجاهد وغيره : نزلت في الصائمين.

قال يعقوب بن يوسف الحنفي : بلغنا أن الله تعالى يقول لأوليائه يوم القيامة : يا أوليائي، طالما نظرت إليكم في الدنيا وقد قلصت شفاهكم عن الأشربة، وغارت أعينكم، وجفّت بطونكم، كونوا اليوم في نعيمكم، وتعاطوا الكأس فيما بينكم. ﴿ وكلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم في الأيام الخالية ﴾.

وقال الحسن : تقول الحوراء لولي الله وهو متكىء معها على نهر العسل تعاطيه الكأس : إن الله نظر إليك في يوم صائف، بعيد ما بين الطرفين وأنت في ظمأ هاجرة من جهد العطش، فباهى بك الملائكة، وقال : انظروا إلى عبدي ترك زوجته وشهوته ولذته وطعامه وشرابه من أجلي، رغبة فيما عندي، اشهدوا أني قد غفرت له، فغفر لك يومئذ وزوجنيك.

وفي « الصحيحين » عن النبي ﷺ قال : « إن في الجنة باباً يقال له : الريان، يدخل منه الصائمون، لا يدخل منه غيرهم » وفي رواية « فإذا دخلوا أغلق »، وفي رواية. « من دخل منه شرب ومن شرب لم يظمأ أبداً ».

وفي حديث عبد الرحمن بن سَمُرة عن النبي ﷺ في منامه الطويل، قال :

« ورأيت رجلاً من أمتي يلهث عطشاً، كلما ورد حوضاً منع منه، فجاءه صيام رمضان فسقاه وأرواه » خرجه الطبراني وغيره.

وروى ابن أبي الدنيا بإسناد فيه ضعف، عن أنس مرفوعاً :

« الصائمون ينفح من أفواههم ريح المسك وتوضع لهم مائدة تحت العرش يأكلون منها والناس في الحساب ».

---

(١) هو في « المسند » ٧٩/٥ والصحابي رجل اعرابي، علّمه رسول الله صلى الله عليه وسلم.

(٢) سورة الحاقة الآية ٢٤.

وعن أنس موقوفاً : « إن لله مائدة لم تر مثلها عين، ولم تسمع أذن، ولا خطر على قلب بشر، لا يقعد عليها إلا الصائمون ».

وعن بعض السلف قال : بلغنا أنه يوضع للصُوّام مائدة يأكلون منها والناس في الحساب، فيقولون : يا رب نحن نحاسب وهم يأكلون ؟ فيقال : إنهم طالما صاموا وأفطرتم، وقاموا ونمتم.

رأى بعضهم بشر بن الحارث[1] في المنام، وبين يديه مائدة وهو يأكل منها ويقال له : كل يا من لم يأكل، واشرب يا من لم يشرب.

كان بعض الصالحين قد صام حتى انحنى، وانقطع صوته، فمات فرآه بعض أصحابه الصالحين في المنام، فسأله عن حاله، فضحك وأنشد :

قَدْ كُسي حِلة البهاءِ وطافت ... بأباريق حوله الخدام
ثم حلّي وقيل يا قارىء ارق ... فلعمري لقد براك الصيام

اجتاز بعض الصالحين بمناد ينادي على السحور في رمضان : ياما خبأنا للصوّام، فتنبه بهذه الكلمة، وأكثر من الصيام.

رأى بعض العارفين في منامه كأنه أُدخل الجنة، فسمع قائلا يقول له : هل تذكر أنك صمت لله يوماً قط ؟ فقال : نعم. قال : فأخذتني صواني النثّار[2] من الجنة : من ترك لله في الدنيا طعاما وشرابا وشهوة مدة يسيرة، عوضه الله عنده طعاماً وشراباً لا ينفد وأزواجاً لا يَمُتْنَ أبداً.

شهر رمضان فيه يزوج الصائمون

في الحديث : « إن الجنة لتزخرف وتُنجَد من الحول إلى الحول لدخول رمضان، فتقول الحُور : يا رب اجعل لنا في هذا الشهر من عبادك أزواجاً تقرّ أعيننا بهم، وتقرّ أعينهم بنا ».

وفي حديث آخر : « إن الحور ينادين في شهر رمضان : هل من خاطب إلى الله فنزوجه ».

---

(١) هو بشر بن الحارث المروزي، الزاهد العابد الورع مع سلامة المذهب والمعتمد، توفي سنة ٢٢٧.

(٢) النثار : هو ما يلقى في الأفراح وغيرها من السكاكر والجوز والدراهم على الناس.

ومهور الحور العين طول التهجد، وهو حاصل في رمضان أكثر من غيره.

كان بعض الصالحين كثير التهجد والصيام، فصلى ليلة في المسجد ودعا فغلبته عيناه، فرأى في منامه جماعة، علم أنهم ليسوا من الآدميين، بأيديهم أطباق عليها أرغفة ببياض الثلج، فوق كل رغيف دُرَّة كأمثال الرمان.

فقالوا : كُلْ، فقال : إني أريد الصوم، قالوا له : يأمرك صاحب هذا البيت أن تأكل، قال : فأكلت وجعلت آخذ ذلك الدرّ لأحتمله، فقالوا له : دعه نغرسه لك شجراً ينبت لك خيراً من هذا. قال : أين ؟ قالوا : في دار لا تخرب، وثمر لا يتغير، وملك لا ينقطع، وثياب لا تبلى، فيها رضوى، وعيناً لا تنضب، وقرة أعين، أزواج راضيات مرضيات، لا يَغرن ولا يُغرن فعليك بالانكماش فيما أنت، فإنما هي غفوة حتى ترتحل.

فنزل الدار، فما مكث بعد هذه الرؤيا إلا جمعتين حتى توفي، فرآه ليلة وفاته في المنام بعض أصحابه الذين حدثهم برؤياه وهو يقول : لا تعجب من شجر غرس ليّ في يوم حدثتك، وقد حمل، فقال له : ما حمل ؟ قال : لا تسأل، لا يقدر أحد على صفته، لم ير مثل الكريم إذا حل به مطيع [1].

يا قوم : ألا خاطب في هذا الشهر إلى الرحمن ؟ ألا راغب فيما أعده الله للطائعين في الجنان ؟ ألا طالب لما أخبر به من النعيم المقيم، مع أنه ليس الخبر كالعيان ؟

من يُرد ملك الجنـــــــان	فليـــدعْ عنـــهُ التوانـــــي
وليقـــــم في ظلمـــــة	الليـــل إلـــى نور القـــران
ولـــيصل صومـــاً بصوم	إن هذا العـــيشُ فانـــــي

الطبقة الثانية من الصائمين : من يصوم في الدنيا عما سوى الله، فيحفظ الرأس وما حوى، ويحفظ البطن وما وعى، ويذكر الموت والبلى، ويريد الآخرة فيترك زينة الدنيا، فهذا عيد فِطره، يوم لقاء ربه، وفرحه برؤيته.

أهل الخصوص من الصوَّام صومهم	صون اللسان عن البهتان والكذب

---

(١) ان مثل هذه القصة، مما يرد في المرغبات، تلاحظ عليه الصنعة والتكلف وان كان يسرّ العامة. فإنه قد ينفر الخاصة. والاعتماد على المنامات وأمثالها لا يقام له وزن ...

والعارفون وأهل الأنس صومهم صون القلوب عن الأغيار والحُجب

العارفون لا يسليهم عن رؤية مولاهم بصر، ولا يرويهم دون مشاهدته نهر، همهم أجل من ذلك :

كبُـــرت هِمـــةُ عبـــد طمـــــعت في أن تراكَ
من يصم عن مفطـــرات فصيامـــــــي عن سواك

من صام عن شهواته في الدنيا، أدركها غداً في الجنة، ومن صام عما سوى الله، فعيده يوم لقائه : ﴿ من كان يرجو لقاء الله فإن أجل الله لآت ﴾[١].

وقد صمت عن لذات دهري كلها ويـوم لقاكـم ذاك فطر صيامـي

رؤي بشرٌ في المنام، فسئل عن حاله، فقال : علم قِلّة رغبتي في الطعام فأباحني النظر إليه.

وقيل لبعضهم : أين نطلبك في الآخرة ؟ قال : في زُمرة الناظرين إلى الله. قيل له : كيف علمتَ ذلك ؟ قال : بغض طرفي له عن كل محرّم، وباجتنابي فيه كل منكر ومأثم، وقد سألته أن يجعل جنتي النظر إليه :

يا حبيبَ القلـوبِ مالـي سواكـا ارحـم اليوم مذنبـاً قد أتاكـــا
ليس لي في الجنان مولاي رأي غيـــر أنـــي أريدهـــا لأراكـــا

يا معشر التائبين صوموا اليوم عن شهوات الهوى، لتدركوا عيد الفطر يوم اللقا ، ولا يطولنَّ عليكم الأمل، باستبطاء الأجل، فإن معظم نهار الصيام قد ذهب، وعيد اللقاء قد اقترب.

إن يومـاً جامعـاً شملـي بهـم ذاكَ عيدي ليس لي عيـدٌ سواهُ

وقوله : « ولخلوف فم الصائم، أطيب عند الله من ريح المسك »[٢].

خلوف الفم : ما يتصاعد منه من الأبخرة لخلو المعدة من الطعام بالصيام، وهي رائحة مستكرهة في مشام الناس في الدنيا، لكنها طيبة عند الله، حيث كانت ناشئة عن طاعته وابتغاء مرضاته.

---

(١) سورة العنكبوت الآية ٥٠.

(٢) أنظر « المصنف » لعبد الرزاق الصنعاني، الأرقام ٧٨٩١، ٧٨٩٢، ٧٨٩٣.

كما أن دم الشهيد يجيء يوم القيامة وجرحه يثغب دماً، لونه لون الدم، وريحه ريح المسك.

وبهذا استدلّ من كره السواك للصائم ، أو لم يستحبه من العلماء ، وأول من علمناه استدل بذلك، عطاء ابن أبي رباح [1]، وروي عن أبي هريرة أنه استدل به، لكن من وجه لا يثبت. وفي المسألة خلاف مشهور بين العلماء.

و إنما كرهه من كرهه في آخر نهار الصوم، لأنه وقت خلو المعدة وتصاعد الأبخرة. وهل يدخل وقت الكراهة بصلاة العصر أو بزوال الشمس، أو بفعل صلاة الظهر في أول وقتها ؟ على أقوال ثلاثة، والثالث هو المنصوص عن أحمد [2].

وفي طيب ريح خلوف الصائم عند الله عز وجل معنيان :

المعنى الأول : أن الصيام لما كان سراً بين العبد وبين ربه في الدنيا أظهره الله في الآخرة علانية للخلق ، ليشتهر بذلك أهل الصيام ويعرفون بصيامهم بين الناس، جزاءً لإخفائهم صيامهم في الدنيا.

وروى أبو الشيخ الأصبهاني بإسناد فيه ضعف، عن أنس مرفوعاً « يخرج الصائمون من قبورهم يعرفون بريح أفواههم، أفواههم أطيب من ريح المسك ».

قال مكحول [3]: يروح أهل الجنة برائحة، فيقولون : ربنا ما وجدنا ريحاً منذ دخلنا الجنة أطيب من هذا الريح ، فيقال : هذه رائحة أفواه الصوّام، وقد تفوح رائحة الصيام في الدنيا، وتستنشق قبل الآخرة، وهو نوعان :

النوع الأول : ما يدرك بالحواس الظاهرة.

---

(١) هو التابعي الجليل، والفقيه الكبير عطاء بن أسلم بن صفوان، نشأ بمكة، وكان عالمها ومفتيها ومحدثها توفي سنة ١١٤ هـ.

(٢) وذلك من رواية ابنه عبدالله رقم ٦٨٥ قال : سألت أبي عن السواك للصائم ؟
فقال : لا بأس بالسواك والطيب الى الظهر، ويتوقاه آخر النهار ... وكان ابن عمر يستاك عند الظهر.
أنظر «مسائل الامام أحمد» رواية ابنه عبد الله ص ١٨٣ بتحقيقي.

(٣) هو التابعي الجليل مكحول ابن أبي مسلم، مولده بكابل، من حفاظ الحديث، والفقهاء الكبار، رحل الى العديد من البلدان، وأقام في دمشق وكانت وفاته بها سنة ١١٢ هـ.

كان عبد الله بن غالب من العبّاد المجتهدين في الصلاة والصيام، فلما دفن كان يفوح من تراب قبره رائحة المسك، فرؤي في المنام، فسئل عن تلك الرائحة التي توجد من قبره فقال : تلك رائحة التلاوة والظمأ.

والنوع الثاني : ما تستنشقه الأرواح والقلوب، فيوجب ذلك للصائمين المخلصين المودة والمحبة في قلوب المؤمنين.

وفي حديث الحارث الأشعري[1] عن النبي ﷺ « أن يحيي بن زكريا عليه السلام قال لبني إسرائيل : وآمركم بالصيام، فإن مثل ذلك، كمثل رجل في عصابة معه صرة فيها مسك، فكلهم تعجبه ريحه، وإن ريح الصيام أطيب عند الله من ريح المسك ». خرجه الترمذي[2] وغيره.

لما كان معاملة المخلصين بصيامهم لمولاهم سراً بينه وبينهم، أظهر الله سرهم لعباده فصار علانية، فصار هذا التجلي والإظهار، جزاء لذلك الصون والإسرار.

وفي الحديث : « ما أسر أحد سريرة إلا ألبسه الله رداءها علانية »[3].

قال يوسف بن أسباط : أوحى الله تعالى إلى نبي من الأنبياء : قل لقومك يخفون لي أعمالهم، وعليَّ إظهارها لهم.

تذلُّل أربابُ الهوى في الهوى عزّ　　وفقرهم نحو الحبيب هو الكنز
وسترهم فيه السرائر شهرة　　وغير تلاف النفس فيه هو العجز

والمعنى الثاني : أن من عبد الله وأطاعه، وطلب رضاه في الدنيا بعمل فنشأ من عمله آثار مكروهة للنفوس في الدنيا، فإن تلك الآثار غير مكروهة عند الله، بل هي محبوبة له وطيبة عنده، لكونها نشأت عن طاعته واتباع مرضاته، فإخباره بذلك للعاملين في الدنيا فيه تطيب لقلوبهم، لئلا يكره منهم ما وجد في الدنيا.

---

(١) هو الصحابي الحارث بن الحارث الأشعري الشامي قال ابن حجر : خلطه غير واحد بأبي مالك الأشعري فوهموا، فإن أبا مالك المشهور بكنيته، المختلف باسمه، متقدم الوفاة على هذا.

(٢) وقال : حسن صحيح غريب، وخرجه أحمد في « المسند ».

(٣) أنظر « سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة » لأستاذنا الألباني رقم ٢٣٧.

قال بعض السلف : وعد الله موسى ثلاثين ليلة أن يكلمه على رأسها، فصام ثلاثين يوماً، ثم وجد من فيه خلوفاً، فكره أن يناجي ربه على تلك الحال، فأخذ سواكاً فاستاك فيه، فلما أتى لموعد الله إياه. قال له : يا موسى، أما علمت أن خلوف فم الصائم أُطيب عندنا من ريح المسك، ارجع فصم عشرة أخرى.

ولهذا المعنى كان دم الشهيد ريحه يوم القيامة كريح المسك، وغبار المجاهدين في سبيل الله ذريرة أهل الجنة، وروي ذلك في حديث مرسَل.[1]

كلُّ شيء ناقص في عرف الناس في الدنيا، حتى إذا انتسب الى طاعته ورضاه، فهو الكامل في الحقيقة.

خلوف أُفواه الصائمين له، أطيب من ريح المسك. عُرْي المُحرمين لزيارة بيته أجمل من لباس الحلل. نَوْح المذنبين على أنفسهم من خشيته، أفضل من التسبيح. انكسار المخبتين لعظمته هو الجبر. ذل الخائفين من سطوته هو العزّ. تهتك المحبين في محبته أُحسن من الستر. بذل النفوس للقتل في سبيله هو الحياة، جوع الصائمين لأجله هو الشبع، عطشهم في سبيل مرضاته هو الري، نصَبُ المجتهدين في خدمته هو الراحة.

ذلُّ الفتى في الحب مكرمة   وخضوعه لحبيبه شرفُ

هبت اليوم على القلوب نفحة من نفحات نسيم القرب، سعى سمسار المواعظ للمهجورين في الصلح، وصلت البشارة للمنقطعين بالوصل، وللمذنبين بالعفو، وللمستوجبين النار بالعتق. لما سلسل الشيطان في شهر رمضان، وخمدت نيران الشهوات بالصيام، انعزل سلطان الهوى، وصارت الدولة لحاكم العقل بالعدل، فلم يبق للعاصي عذر.

يا غيوم الغفلة عن القلوب تقشعي، يا شموس التقوى والإيمان اطلعي، يا صحائف أعمال القائمين ارتفعي، يا قلوب الصائمين اخشعي، يا أقدام المتهجدين اسجدي لربك واركعي، يا عيون المتهجدين لا تهجعي، يا ذنوب التائبين لا ترجعي يا أرض الهوى ماءك ابلعي، ويا سماء النفوس أقلعي، يا بروق

---

(١) رواه أبو داود في مراسيله. والذريرة : نوع من الطيب مجموع من أخلاط. والمعنى : إن من تحمل غبار الجهاد كان له مسك أذفر ورائحة طيبة يوم القيامة.

الأشواق للعشاق المعي، يا خواطر العارفين ارتعي، يا همم المحبين بغير الله لا تقنعي، ... [1]

قد مدت في هذه الايام موائد الإنعام للصوّام، فما منكم إلا من دُعي، يا قومنا أجيبوا داعي الله، ويا همم المؤمنين أسرعي، فطوبى لمن أجاب، فأصاب، وويل لمن طرد عن الباب، وما دُعي.

سألـــتك يا بانـــة الأجـــرع	متى رحل الحـــي من لعلـــع
وهـل مرَّ قلبـــي مع الظاعنيـــن	وهـل جاز صقعاً فلـــم يتبـــع
رحلنـــا فرافقنـــا الصادقـــون	لم يتخلـــف سوى المدّعـــي

* * *

ليتَ شعري إن جئتهـم يقبلونـي	أم تراهـم عَنْ بابهـم يصرفونـــي
أم تُرانـــي إذا وقـــفت لديهـــم	يأذنـــوا بالدخـــول أم يطردونـــي

---

(١) وقد زاد بعضهم في «لطائف المعارف»: يا جنيد اطرب[1]، ويا شبلي[2] احضر، ويا رابعة[3] اسمعي. وهذا مستبعد عن ابن رجب أو غيره ممن شمّ رائحة العلم، فإن الجنيد والشبل، ورابعة قد أفضوا الى ما قدموا، واذا مات ابن آدم انقطع عمله فلا الجنيد يطرب، ولا الشبل يحضر، ولا رابعة تسمع، وانما الطرب للملائكة فرحاً بالصائم، وحضوراً لتسجيل حسناته، وسماع دعائه، وتوجّهه الى خالقه ليوفى أجره يوم القيامة.

---

(١) والجنيد هو الجنيد بن محمد البغدادي من العلماء الفصحاء، وكان مبرءاً من عقائد المتصوفة الذين ينسبون أنفسهم اليه، وكان يقول: من لم يحفظ القرآن، ولم يكتب الحديث ولم يتفقه لا يقتدى به. وكانت وفاته سنة ٢٩٧ ببغداد.

(٢) والشبلي هو: دُلف بن جحدر الشبلي، من الزهاد والنساك، وكان شاعراً مات سنة ٣٣٤ ولبعض المتصوفة تعلق به كثير.

(٣) ورابعة هي بنت اسماعيل العدوية اشتهرت بالصلاح والتعبد، وهي من أهل البصرة، توفيت سنة ١٨٥.

المجلس الثاني
في فضل الجود في رمضان، وتلاوة القرآن

في « الصحيحين » : عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : كان النبي ﷺ أجود الناس، وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل فيدارسه القرآن ــ فلَرسولُ الله ﷺ حين يلقاه جبريل أجود بالخير من الريح المرسلة.

وخرجه الإمام أحمد بزيادة في آخره، وهي : لا يُسأل عن شيء إلا أعطاه.

الجود : هو سعة العطاء وكثرته، والله تعالى يوصف بالجود.

وفي الترمذي من حديث سعد ابن أبي وقاص رضي الله عنه عن النبي ﷺ : « إن الله جواد يحب الجود، كريم يحب الكرم ».

وفيه أيضاً : من حديث أبي ذر رضي الله عنه عن النبي ﷺ عن ربه، قال :

« يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم، وجنكم وإنسكم، وحيكم وميتكم، ورطبكم ويابسكم اجتمعوا في صعيد واحد فسأل كل إنسان منكم ما بلغت أمنيته فأعطيتُ كل سائل منكم، ما نقص ذلك من مُلكي إلا كما لو أن أحدكم مر بالبحر فغمس فيه إبرة ثم رفعها إليه، ذلك بأني جواد واجد ماجد، أفعل ما أريد، عَطائي كلام، وعذابي كلام، إنما أمري لشيء إذا أردته أن أقول له : كنْ فيكون »[1].

---

(١) رواه الترمذي برقم ٢٤٩٥ وقال: هذا حديث حسن. وفي سنده شهر بن حوشب. قال عنه في «التقريب» صدوق، كثير الارسال والأوهام.

ورواه ابن ماجه من طريق شهر بن حوشب أيضاً (٤٣١١)، بلفظ : « إن الله تبارك وتعالى يقول : يا عبادي ! كلكم مذنب إلا من عافيت. فسلوني المغفرة فأغفر لكم. ومن علم منكم أني ذو قدرة على المغفرة فاستغفرني بقدرتي غفرت له. وكلكم ضالٌ إلا من هديتُ. فسلوني الهدى أهدكم. وكلكم فقير إلا من أغنيت. فسلوني أرزقكم. ولو أن حيّكم وميتكم، وأولكم وآخركم، ورطبكم ويابسكم اجتمعوا فكانوا على قلب أتقى عبد من عبادي ــ لم يزد في مُلكي جناحُ بعوضة. ولو اجتمعوا فكانوا على قلب اشقى =

وفي الأثر المشهور عن الفضيل بن عياض [١] : إن الله تعالى يقول كل ليلة : أنا الجواد ومني الجود، وأنا الكريم ومني الكرم.

فالله سبحانه وتعالى أجود الأجودين، وجوده يتضاعف في أوقات خاصة، كشهر رمضان، وفيه أنزل قوله : ﴿ وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداعِ إذا دعانِ ﴾ [٢].

وفي الحديث الذي خرجه الترمذي وغيره : « أنه ينادي فيه منادٍ ياباغي الخير هلم، ويا باغي الشر أقصر، ولله عتقاء من النار، وذلك كل ليلة ».

ولمّا كان الله عزّ وجلّ قد جبل نبيه ﷺ على أكمل الأخلاق وأشرفها، كما في حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « إنما بعثت لأتمّم مكارم الاخلاق » [٣] وذكره مالك في « الموطأ » بلاغاً. فكان رسول الله ﷺ أجود الناس كلهم.

وخرج ابن عدي بإسناد فيه ضعف من حديث أنس مرفوعاً. « ألا أخبركم بالأجود الأجود ؟ الأجود الله، وأنا أجود بني آدم، وأجودهم من بعدي رجل عَلِمَ علماً فنشر علمه، يُبعث يوم القيامة أمة واحدة، ورجل جاد بنفسه في سبيل الله » [٤].

= عبدٍ من عبادي ـــ لم ينقص من ملكي جناحُ بعوضة. ولو أن حيكم وميتكم، وأولكم وآخركم، ورطبكم ويابسكم اجتمعوا، فسأل كل سائل منهم ما بلغت أمنيته ـــ ما نقص من ملكي إلا كما لو أن أحدكم مرّ بشفعة البحر، فغمس فيها إبرة ثم نزعها. ذلك بأني جوادٌ ماجدٌ. عطائي كلام. اذا أردت شيئاً، فإنما أقول له : كن فيكون ».

(١) هو الفضيل بن عياض بن مسعود من أكابر العلماء العباد ثقة في الحديث، وأصبح شيخ الحرم المكي، وكانت وفاته ١٨٧ هـ.

(٢) سورة البقرة ١٨٦.

(٣) رواه أحمد عن ابي هريرة بلفظ « إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق » قال الهيثمي في « المجمع » : ورجاله رجال الصحيح. وكذلك قال السخاوي في « المقاصد ». ورواه الطبراني بلفظ : « إن الله بعثني بتمام مكارم الأخلاق وكمال محاسن الأعمال » وفي سنده عمر بن إبراهيم القرشي، وهو ضعيف، ومعنى الحديث صحيح.

(٤) أنظر «مشكاة المصابيح» ٢٥٩ ، و«ضعيف الجامع الصغير» ٢١٦٠ وهما من طبع المكتب الاسلامي.

فدل هذا على أنه ﷺ أجود بني آدم على الإطلاق، كما أنه أفضلهم، وأعلمهم، وأشجعهم، وأكملهم في جميع الأوصاف الحميدة. وكان جوده بجميع أنواع الجود، من بذل العلم والمال وبذل نفسه لله تعالى في إظهار دينه، وهداية عباده، وإيصال النفع إليهم بكل طريق، من إطعام جائعهم، ووعظ جاهلهم، وقضاء حوائجهم، وتحمل أثقالهم، ولم يزل ﷺ على هذه الخصال الحميدة منذ نشأ.

ولهذا قالت له خديجة رضي الله عنها في أول مبعثه : والله لا يخزيك الله أبداً، إنك لتصل الرحم، وتقري الضيف، وتحمل الكلَّ، وتكسب المعدوم، وتعين على نوائب الحق.

ثم تزايدت هذه الخصال فيه بعد البعثة وتضاعفت أُضعافاً كثيرة.

وفي « الصحيحين » عن أنس قال : « كان رسول الله ﷺ أحسن الناس، وأشجع الناس، وأجود الناس ».

وفي « صحيح مسلم » عنه قال : « ما سئل رسول الله ﷺ على الإسلام شيئاً إلا أعطاه، فجاء رجل فأعطاه غنماً بين جبلين، فرجع الى قومه فقال : يا قوم أسلموا، فإن محمداً يعطي عطاء من لا يخشى الفاقة ».

وفي رواية « أن رجلاً سأل النبي ﷺ غنماً بين جبلين فأعطاه إياه، فأتى قومه فقال : يا قوم أسلموا، فإن محمداً يعطي عطاءً، ما يخاف الفقر »

قال أنس : إن كان الرجل ليسلم، ما يريد إلا الدنيا، فما يمسي حتى يكون الإسلام أحب إليه من الدنيا وما عليها.

وفيه أيضاً : عن صفوان بن أمية [1] قال : « لقد أعطاني رسول الله ﷺ ما أعطاني وإنه لمن أبغض الناس إليَّ، فما برح يعطيني حتى إنه لأحب الناس إليَّ »

قال ابن شهاب [2] : أعطاه يوم حنين مائة من النعم، ثم مائة، ثم مائة.

---

(١) هو صفوان الجمحي القرشي المكي، كان من أشراف قريش في الجاهلية والاسلام، أسلم بعد الفتح، وكان من المؤلفة قلوبهم، ثم شهد الرسول ومات بمكة.

(٢) هو محمد بن مسلم الزهري المدني أبو بكر، أحد أكابر الحفاظ والفقهاء، وأول من دوّن الحديث وروى عن الصحابة، استقرّ في الشام، وكان جواداً. توفي سنة ١٢٤ هـ.

وفي « مغازي »[1] الواقدي : أن النبي ﷺ أعطى صفوان يومئذ وادياً مملوءاً إبلاً ونعماً.

فقال صفوان : أشهد ما طابت بهذا إلا نفس نبي.

وفي « الصحيحين » عن جبير بن مُطعم أن الأعراب علقوا بالنبي ﷺ مرجعه من حُنين يسألونه أن يقسم بينهم، فقال : « لو كان لي عدد هذه العضاه[2] نعماً لقسمته بينكم ثم لا تجدوني بخيلاً ولا كذوباً ولا جباناً ».

وفيهما عن جابر قال : ما سئل رسول الله ﷺ شيئاً فقال : لا، وإنه قال لجابر : « لو جاءنا مال البحرين لقد أعطيتك هكذا وهكذا وهكذا » وقال بيديه جميعاً.

وخرج البخاري من حديث سهل بن سعد، أن شَمْلَة أُهديت للنبي ﷺ فلبسها وهو محتاج إليها، فسأله إياها رجل فأعطاه إياها، فلامه الناس، وقالوا : كان محتاجاً اليها وقد علمتَ أنه لا يرد سائلا. فقال : إنما سألتها لتكون كفني، فكانت كفنه.

وكان جوده ﷺ كله لله، وفي ابتغاء مرضاته، فإنه كان يبذل المال إما لفقير أو محتاج، أو ينفقه في سبيل الله، أو يتألف به على الإسلام من يقوى الإسلام باسلامه.

وكان يؤثر على نفسه وأهله وأولاده، فيعطي عطاءً يعجِز عنه الملوك مثل كسرى وقيصر، ويعيش في نفسه عيش الفقراء، فيأتي عليه الشهر والشهران لا يوقد في بيته نار، وربما ربط على بطنه الحجر من الجوع.

وكان قد أتاه سبي مرة، فشكت اليه فاطمة ما تلقى من خدمة البيت، وطلبت منه خادماً يكفيها مؤنة بيتها، فأمرها أن تستعين بالتسبيح والتكبير والتحميد عند نومها، وقال : « لا أعطيك وأهل الصفة تطوى بطونهم من الجوع » .

وكان جوده ﷺ يتضاعف في شهر رمضان على غيره من الشهور، كما أن

---

(1) هو محمد بن عمر بن واقد المتوفى سنة ٢٠٧ هـ. وانظر مغازي الواقدي ص ٩٤٦.

(2) العضاه : كل شجر عظيم وله شوك. واحدها : عضاهة، وعضهة.

جود ربه يتضاعف فيه أيضاً، فإن الله جبله على ما يحبه من الأخلاق الكريمة، وكان على ذلك من قبل البعثة.

وذكر ابن إسحاق، عن وهب بن كَيْسان[1]، عن عبيد بن عمير [2] قال : كان رسول الله ﷺ يجاور في حراء من كل سنة شهراً، يطعم من جاءه من المساكين، حتى إذا كان الشهر الذي أراد الله به ما أراد من كرامته من السنة التي بعثه فيها، وذلك الشهر شهر رمضان، خرج الى حراء كما كان يخرج لجواره معه أهله، حتى إذا كانت الليلة التي أكرمه الله تعالى برسالته ورحم العباد بها، جاءه جبريل من الله عز وجل.

ثم كان بعد الرسالة جوده في رمضان أضعاف ما كان قبل ذلك، فإنه كان يلتقي هو وجبريل عليه السلام، وهو أفضل الملائكة وأكرمهم، ويدارسه الكتاب الذي جاء به اليه، وهو أشرف الكتب وأفضلها، وهو يحث على الإحسان ومكارم الأخلاق. وقد كان رسول الله ﷺ يجعل هذا الكتاب له خلقاً، بحيث يرضى لرضاه، ويسخط لسخطه، ويسارع الى ما حث عليه، ويمتنع مما زجر عنه، فلهذا كان يتضاعف جوده وإفضاله في هذا الشهر لقرب عهده بمخالطة جبريل عليه السلام، وكثرة مدارسته له هذا الكتاب الكريم الذي يحث على المكارم والجود. ولا شك أن المخالطة تؤثر وتورث أخلاقاً من المخالطة.

كان بعض الشعراء امتدح ملكاً جواداً، فأعطاه جائزة سنية، فخرج بها من عنده وفرّقها كلها على الناس، فأنشد :

لمستُ بكفيّ كفّه أبتغي الغنى ... ولم أدرِ أن الجود من كفّه يُعدي

فبلغ ذلك الملك، فأضعف له الجائزة.

وقد قال بعض الشعراء[3] يمتدح بعض الأجواد، ولا يصلح أن يكون ذلك الا لرسول الله صلى الله عليه وسلم :

---

(١) هو وهب بن كيسان، أبو نُعيم المعلّم المدني، القرشي بالولاء لآل الزبير. قال الحافظ العسقلاني في التقريب : ثقة، مات سنة سبع وعشرين.

(٢) هو عبيد بن عمير بن قتادة الليثي ولد على عهد النبي ﷺ، وكان قاص أهل مكة، مجمع على ثقته، ومات قبل ابن عمر كما في «التقريب» والخبر في «سيرة ابن هشام» ١/ ٢٥١.

(٣) «الشواهد» للشيخ عبد الله بن خميس ١ ـ ١٧٥.

تعودَ بسطَ الكف حتى لو انه ثناها لقبض لم تجبه أناملــه
تراه إذا ما جئتــه متهللـــلاً كأنك تعطيه الذي أنت سائله
ولو لم يكن في كفه غير روحه لجاد بها فليتــق الله سائلــه
هو البحر من أي النواحي أتيتـه فلجَّتـه المعروف والجـود ساحله

سمع الشبلي قائلاً يقول : يا الله، يا جواد. فتأوَّه وصاح وقال : كيف يمكنني أن أصف الحق بالجود، ومخلوق يقول في شكله. فذكر هذه الأبيات ثم بكى، وقال : بلى يا جوَاد، فإنك أوجدت تلك الجوارح، وبسطت تلك الهمم، فأنت الجواد كل الجواد، فإنهم يعطون عن محدود، وعطاؤك لا حد له، ولا صفة. فيا جواد يعلو كل جواد، وبه جاد كل من جاد.

وفي تضاعف جوده ﷺ في شهر رمضان بخصوصه فوائد كثيرة : منها شرف الزمان، ومضاعفة أجر العمل فيه.

وفي الترمذي عن أنس مرفوعاً : « أفضل الصدقة صدقة في رمضان » ومنها : إعانة الصائمين والقائمين والذاكرين على طاعتهم، فيستوجب المعين لهم مثل أجرهم.

كما « أن من جهز غازياً فقد غزا، ومن خلَّفه في أهله فقد غزا ». وفي حديث زيد بن خالد عن النبي ﷺ قال : « من فطّر صائماً فله مثل أجره من غير أن ينقص من أجر الصائم شيء » خرجه الامام أحمد، والنسائي، والترمذي، وابن ماجه، وخرجه الطبراني من حديث عائشة وزاد فيه.

« وما عمل الصائم من أعمال البر إلا كان لصاحب الطعام ما دام قوة الطعام فيه ».

وخرّج ابن خزيمة في « صحيحه »[1] من حديث سلمان مرفوعاً حديثاً في فضل شهر رمضان وفيه :

« وهو شهر المواساة، وشهر يزاد فيه في رزق المؤمن، من فَطّرَ فيه صائماً كان مغفرة لذنوبه وعتق رقبته من النار، وكان له مثل أجره من غير أن ينقص من أجره شيء » .

---

(١) أنظر « صحيح ابن خزيمة » ١٩١/٣، رقم ١٨٨٧، وهو من طبع المكتب الاسلامي.

قالوا : يا رسول الله ليس كلنا يجد ما يفطر الصائم، قال : « يعطي الله هذا الثواب لمن فطر صائماً على مذقة لبن، أو تمرة، أو شربة ماء، ومن سقى فيه صائماً سقاه الله من حوضي شُربة لا يظمأ بعدها حتى يدخل الجنة »

ومنها : أن شهر رمضان شهر يجود الله فيه على عباده بالرحمة والمغفرة والعتق من النار، لا سيما في ليلة القدر، والله تعالى يرحم من عباده الرحماء.

كما قال ﷺ : « إنما يرحم الله من عباده الرحماء »[1] فمن يجود على عباد الله جاد الله عليه بالعطاء والفضل، والجزاء من جنس العمل.

ومنها : أن الجمع بين الصيام والصدقة من موجبات الجنة، كما في حديث علي رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « إن في الجنة غرفاً يُرى ظهورها من بطونها وبطونها من ظهورها » قالوا : لمن هي يا رسول الله ؟ قال : « لمن طيب الكلام، وأطعم الطعام، وأدام الصيام، وصلى بالليل والناس نيام »[2].

وهذه الخصال كلها تكون في رمضان، فيجتمع فيه الصيام والقيام والصدقة وطيب الكلام، فإنه يُنهى فيه الصائم عن اللغو والرفث.

والصيام والصلاة والصدقة توصل صاحبها الى الله عز وجل. قال بعض السلف : الصلاة توصل صاحبها الى نصف الطريق، والصيام يوصله الى باب الملك، والصدقة تأخذ بيده فتدخله على الملك.

وفي « صحيح مسلم » عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال : « من أصبح منكم اليوم صائماً ؟ » قال أبو بكر : أنا، قال : « من تبع منكم اليوم جنازة ؟ » قال أبو بكر : أنا، قال : « من تصدق بصدقة ؟ » قال أبو بكر : أنا، قال « فمن عاد منكم مريضاً ؟ » قال أبو بكر : أنا، قال : « ما اجتمعن في امرىء إلا دخل الجنة ».

ومنها : أن الجمع بين الصيام والصدقة أبلغ في تكفير الخطايا، واتقاء جهنم والمباعدة عنها، وخصوصاً إن ضم على ذلك قيام الليل.

فقد ثبت عن رسول الله ﷺ أنه قال : « الصيام جُنة » وفي رواية :

---

(١) متفق عليه من حديث أسامة بن زيد، رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الترمذي عن علي، وفي سنده عبد الرحمن .. وهو ضعيف. ورواه أحمد عن أبي مالك الأشعري. قال الهيثمي : رجاله رجال الصحيح غير عبدالله بن معانق وثقة العجلي.

« جُنة أحدكم من النار كجُنته من القتال »[1].

وفي حديث معاذ عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: « الصدقة تطفىء الخطيئة كما يطفىء الماءُ النارَ، وقيام الرجل في جوف الليل » يعني أنه يطفىء الخطيئة أيضاً. وقد صرح ذلك في رواية الإمام أحمد.

وفي الحديث الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: « اتقوا النار ولو بشق تمرة »[2].

كان أبو الدرداء يقول: صلوا في ظلمة الليل ركعتين لظلمة القبور، صوموا يوماً شديداً حره لحر يوم النشور، تصدقوا بصدقة لشر يوم عسير.

ومنها أن الصيام لا بد أن يقع فيه خلل أو نقص. وتكفير الصيام للذنوب مشروط بالتحفظ مما ينبغي التحفظ منه، كما ورد ذلك في حديث خرجه ابن حبان في صحيحه.

وعامة صيام الناس لا يجتمع في صومه التحفظ كما ينبغي، ولهذا نهى أن يقول الرجل: صمت رمضان كله، أو قمته كله، فالصدقة تجبر ما فيه من النقص والخلل، ولهذا وجب في آخر شهر رمضان زكاة الفطر طُهرة للصائم من اللغو والرفث.

والصيام والصدقة لهما مدخل في كفارات الأيمان، ومحظورات الإحرام، وكفارة الوطء في رمضان. ولهذا كان الله تعالى قد خيَّر المسلمين في ابتداء الأمر بين الصيام وإطعام المسكين، ثم نسخ ذلك، وبقي الإطعام لمن يعجز عن الصيام لكبره، ومن أخر قضاء رمضان حتى أدركه رمضان آخر، فإنه يقضيه ويضم إليه إطعام مسكين لكل يوم، تقوية له عند أكثر العلماء، كما أفتى به الصحابة، وكذلك من أفطر لأجل غيره، كالحامل والمرضع على قول طائفة من العلماء.

ومنها: أن الصائم يدع طعامه وشرابه لله، فإذا أعان الصائمين على التقوّي على طعامهم وشرابهم، كان بمنزلة من ترك شهوته لله، وآثر فيها، أو واسى فيها، ولهذا يشرع له تفطير الصوَّام معه إذا أفطر، لأن الطعام يكون محبوباً له حينئذ، فيواسي منه، حتى يكون ممن أطعم الطعام على حبه، ويكون في ذلك شكر لله

---

(١) أنظر « صحيح الجامع الصغير » ٣٧٥٩، ٣٧٦٠، ٣٧٦١، ٣٧٧٠، ٣٧٧٣.

(٢) أخرجه الشيخان عن عدي بن حاتم، رضي الله عنه.

على نعمة إباحة الطعام والشراب له، ورده عليه بعد منعه إياه، فإن هذه النعمة إنما عرف قدرها عند المنع منها.

وسئل بعض السلف[1]: لم شرع الصيام ؟ قال : ليذوق الغني طعم الجوع فلا ينسى الجائع.

وهذا من بعض حكم الصوم وفوائده.

وقد ذكرنا فيما تقدم حديث سلمان، وفيه : « وهو شهر المواساة » فمن لم يقدر فيه على درجة الإيثار على نفسه فلا يعجز عن درجة أهل المواساة. وكان كثير من السلف يواسون من إفطارهم أو يؤثرون به، ويطوون[2].

وكان ابن عمر يصوم ولا يفطر إلا مع المساكين، فإذا منعه أهله عنهم، لم يتعش تلك الليلة، وكان إذا جاءه سائل وهو على طعامه، أخذ نصيبه من الطعام وقام فأعطاه السائل، فيرجع وقد أكل أهله ما بقي في الجفنة، فيصبح صائماً ولم يأكل شيئاً.

واشتهى بعض الصالحين من السلف طعاماً، وكان صائماً، فوضع بين يديه عند فطوره، فسمع سائلا يقول : من يقرض المليء الوفي الغني ؟ فقال : عبده المعدم من الحسنات، فقام فأخذ الصحفة فخرج بها إليه وبات طاوياً.

وجاء سائل إلى الإمام أحمد فدفع إليه رغيفين كان يعدهما لفطره ثم طوى وأصبح صائماً.

وكان الحسن يطعم إخوانه وهو صائم تطوعاً، ويجلس يروحهم وهم يأكلون.

وكان ابن المبارك يطعم إخوانه في السفر الألوان من الحلواء وغيرها وهو صائم.

سلام الله على تلك الأرواح، ورحمة الله على تلك الأشباح، لم يبق منهم إلا أخبار وآثار، كم بين من يمنع الحق الواجب عليه، وبين أهل الايثار.

---

(1) أنظر كتاب « حقيقة الصيام » لشيخ الاسلام ابن تيمية بتحقيقي وتخريج أستاذنا الألباني، فإن فيه ايضاح جيد للكثير من أحكام الصيام وكذلك « المسائل الماردينية » لابن تيمية بتحقيقي.

(2) يطوون : أي يصبرون على الجوع ويؤخرون طعامهم لليوم الثاني وهذا طبعاً من غير مواصلة الصيام، وانما الافطار علي القليل أو الماء، لأن النبي ﷺ نهى عن مواصلة الصيام.

لا تعرضن لذكرنا في ذكرهم   ليسَ الصحيحُ إذا مشى كالمقعدِ

وله فوائد أخر.

قال الشافعي رحمه الله : أحب للرجل الزيادة بالجود في شهر رمضان، اقتداء بالرسول ﷺ ، ولحاجة الناس فيه إلى مصالحهم، ولتشاغل كثير منهم بالصوم والصلاة عن مكاسبهم.

وكذا قال القاضي أبو يعلى وغيره من أصحابنا أيضاً [١].

(١) هو الإمام أبو يعلى الفراء محمد بن حسين القاضي المتوفى سنة٤٥٨ ،وكان من كبار الحنابلة، ولذلك قال ابن رجب : من أصحابنا.

فصل

من فضائل القرآن في رمضان

ودل الحديث أيضاً على استحباب دراسة القرآن في رمضان، والاجتماع على ذلك، وعرض القرآن على من هو أحفظ له. وفيه دليل على استحباب الاكثار من تلاوة القرآن في شهر رمضان.

وفي حديث فاطمة رضي الله عنها عن أبيها صلى الله عليه وسلم : أنه أخبرها أن جبريل عليه السلام كان يعارضه القرآن كل عام مرة، وأنه عارضه في سنة وفاته مرتين.

وفي حديث ابن عباس : أن المدارسة بينه وبين جبريل عليهما السلام كانت ليلا، فدل على استحباب الاكثار من التلاوة في رمضان ليلا، فإن الليل تنقطع فيه الشواغل وتجتمع فيه الهمم، ويتواطأ فيه القلب واللسان على التدبر، كما قال تعالى : ﴿ إن ناشئة الليل هي أشد وطأ وأقوم قيلا ﴾[1].

وشهر رمضان له خصوصية بالقرآن، كما قال تعالى : ﴿ شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن ﴾[2]. وقد قال ابن عباس رضي الله عنهما : إنه أنزل جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة في ليلة القدر. ويشهد لذلك قوله تعالى : ﴿ إنا أنزلناه في ليلة القدر ﴾[3] وقوله ﴿ إنا أنزلناه في ليلة مباركة ﴾[4] وقد سبق عن عبيد بن عمير أن النبي صلى الله عليه وسلم : بدىء بالوحي ونزول القرآن عليه في شهر رمضان.

وفي « المسند » عن واثلة بن الأسقع عن النبي ﷺ أنه قال : « نزلت صحف إبراهيم في أول ليلة من شهر رمضان، وأنزلت التوراة لست مضين من

---

(١) سورة المزمل الآية ٦.
(٢) سورة البقرة الآية ١٨٥.
(٣) سورة القدر الآية ١.
(٤) سورة الدخان الآية ٢.

رمضان، وأنزل الإنجيل لثلاث عشرة من رمضان، وأنزل القرآن لأربع وعشرين خلت من رمضان ».

وكان النبي ﷺ يطيل القراءة في قيام رمضان بالليل أكثر من غيره.

وقد صلى معه حذيفة ليلة في رمضان، قال : فقرأ بـ «البقرة »، ثم « النساء » ثم « آل عمران » لا يمر بآية تخويف إلا وقف وسأل، قال : فما صلى الركعتين حتى جاءه بلال فآذنه بالصلاة. خرجه الامام أحمد، وخرجه النسائي وعنده : أنه ما صلى إلا أربع ركعات [1].

وكان عمر قد أمر أُبيّ بن كعبْ وتميماً الداريّ أن يقوما بالناس في شهر رمضان، فكان القارىء يقرأ بالمائتين في ركعة، حتى كانوا يعتمدون على العصي من طول القيام، وما كانوا ينصرفون إلا عند الفجر [2].

وفي رواية : أنهم كانوا يربطون الحبال بين السواري ثم يتعلقون بها.

وروي أن عمر جمع ثلاثة قرّاء فأمر أسرعهم قراءة أن يقرأ بالناس ثلاثين، وأوسطهم بخمس وعشرين، وأبطأهم بعشرين.

ثم كان في زمن التابعين يقرؤون بـ (البقرة) في قيام رمضان في ثماني ركعات، فإن قرأ بها في اثنتي عشرة ركعة، رأوا أنه قد خفف.

قال ابن منصور : سئل إسحاق بن راهويه : كم يقرأ في شهر رمضان ؟ فلم يرخص في دون عشر آيات، فقيل له : إنهم لا يرضون، فقال : لا رضوا، فلا تؤمنهم إذا لم يرضوا بعشر آيات من(البقرة)، يعني في كل ركعة.

وكذلك كره مالك أن يقرأ دون عشر آيات.

وسئل الامام أحمد عما روي عن عمر كما تقدم ذكره في السريع القراءة والبطيء. فقال : في هذا مشقة على الناس، ولاسيما في هذه الليالي القصار، وإنما الأمر على ما يحتمله الناس.

---

(١) يلاحظ أن النبي ﷺ قدم النساء على آل عمران وهذا أحق بالاتباع من الذين أوجبوا متابعة القراءة في الصلاة حسب ترتيب المصحف.

(٢) إذا كان الامام في التراويح بعهد عمر يقرأ في الركعة مائتي آية ويطيل القيام والركوع والسجود، فكيف تكون التراويح أكثر من ثمان ركعات؟ وانظر رسالة «صلاة التراويح»، طبع المكتب الاسلامي.

وقال أحمد لبعض أصحابه وكان يصلي بهم في رمضان : هؤلاء قوم ضعفاء، اقرأ خمساً، ستاً، سبعاً، قال : فقرأت فختمت ليلة سبع وعشرين.

وقد روى الحسن : أن الذي أمره عمر أن يصلي بالناس، كان يقرأ خمس آيات، ست آيات.

وكلام الإمام أحمد يدل على أنه يراعى في القراءة حال المأمومين، فلا يشق عليهم.

وقاله أيضاً غيره من الفقهاء من أصحاب أبي حنيفة وغيرهم

وقد روي عن أبي ذر : أن النبي صلى الله عليه وسلم قام بهم ليلة ثلاث وعشرين الى ثلث الليل، وليلة خمس وعشرين الى نصف الليل، فقالوا له : لو نفّلتنا بقية ليلتنا، فقال : « ان الرجل إذا صلى مع الامام حتى ينصرف كُتب له بقية ليلته » خرجه أهل « السنن » وحسنه الترمذي.

وهذا يدل على أن قيام ثلث الليل يُكتب به قيام ليلة، لكن مع الإمام.

وكان الإمام أحمد يأخذ بهذا الحديث، ويصلي مع الامام حتى ينصرف، ولا ينصرف حتى ينصرف الإمام.

وقال بعض السلف : من قام نصف اللّيل فقد قام الليل.

وفي « سنن أبي داود » عن عبد الله بن عمرو عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « من قام بعشر آيات لم يُكتب من الغافلين، ومن قام بمائة آية كتب من القانتين، ومن قام بألف آية كتب من المقنطرين ».

يعني أن يكتب له قنطار من الأجر.

ويروى من حديث تميم وأنس مرفوعاً : « من قرأ بمائة آية في ليلة كتب له قيام ليلة »، وفي إسنادهما ضعف. وروي حديث تميم موقوفاً عليه وهو أصح.

وعن ابن مسعود قال : من قرأ في ليلة خمسين آية لم يكتب من الغافلين، ومن قرأ مائة آية كتب من القانتين، ومن قرأ ثلاثمائة آية كتب له قنطار، ومن أراد أن يزيد في القراءة ويطيل ــ وكان يصلي لنفسه ــ فليطوّل ماشاء. كما قاله النبي صلى الله عليه وسلم، وكذلك من صلى بجماعة يرضون بصلاته.

وكان بعض السلف يختم في قيام رمضان في كل ثلاث ليال، وبعضهم في

كل سبع، منهم قتادة. وبعضهم في كل عشرة، منهم أبو رجاء العطاردي.

وكان السلف يتلون القرآن في شهر رمضان في الصلاة وغيرها، كان الأسود يقرأ القرآن في كل ليلتين في رمضان، وكان النخعي يفعل ذلك في العشر الأواخر منه خاصة، وفي بقية الشهر في ثلاث.

وكان قتادة يختم في كل سبع دائماً، وفي رمضان في كل ثلاث، وفي العشر الأواخر كل ليلة.

وكان للشافعي في رمضان ستون ختمة يقرؤها في غير الصلاة. وعن أبي حنيفة نحوه. وكان قتادة يدرس القرآن في شهر رمضان. وكان الزهري إذا دخل رمضان قال : فإنما هو تلاوة القرآن، و إطعام الطعام.

قال ابن عبد الحكم : كان مالك إذا دخل رمضان يفر من قراءة الحديث ومجالسة أهل العلم، وأقبل على تلاوة القرآن من المصحف.

وقال عبد الرزاق : كان سفيان الثوري إذا دخل رمضان ترك جميع العبادة، وأقبل على قراءة القرآن.

وكانت عائشة رضي الله عنها تقرأ في المصحف أول النهار في شهر رمضان، فإذا طلعت الشمس نامت.

وقال سفيان : كان زُبيد اليامي [1] إذا حضر رمضان أحضر المصاحف وجمع اليه أصحابه.

و إنما ورد النهي عن قراءة القرآن في أقل من ثلاث على المداومة على ذلك، فأما في الأوقات المفضلة، كشهر رمضان، خصوصاً الليالي التي يُطلب فيها ليلة القدر، أو في الأماكن المفضلة، كمكة لمن دخلها من غير أهلها، فيستحب الإكثار فيها من تلاوة القرآن، اغتناماً للزمان والمكان، وهو قول أحمد، و إسحاق، وغيرهما من الأئمة، وعليه يدل عمل غيرهم كما سبق ذكره.

واعلم أن المؤمن يجتمع له في شهر رمضان جهادان لنفسه : جهاد بالنهار على الصيام، وجهاد بالليل على القيام، فمن جمع بين هذين الجهادين، ووفّى

---

(١) هو أبو عبد الرحمن، زبيد بن الحارث بن عمرو بن كعب اليامي الكوفي، ثقة ثبت عابد. روى له الجماعة. توفي سنة ١٢٢ هـ.

بحقوقهما، وصبر عليهما، وُفِّيَ أجره بغير حساب.

قال كعب : ينادي يوم القيامة منادٍ : إن كل حارث يعطى بحرثه ويزاد، غير أن أهل القرآن والصيام يعطون أجورهم بغير حساب. ويشفعان له أيضاً عند الله عز وجل، كما في « المسند » عن عبد الله بن عمرو، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « الصيام والقرآن يشفعان للعبد يوم القيامة، يقول الصيام : رب منعته الطعام والشراب بالنهار ؛ ويقول القرآن : منعته النوم بالليل فشفعني فيه، فيشفَّعان ».

فالصيام يشفع لمن منعه الطعام والشهوات المحرمة كلها، سواء كان تحريمها يختص بالصيام، كشهوة الطعام، والشراب، والنكاح، ومقدماتها. أو لا يختص به، كشهوة فضول الكلام المحرم، والسماع المحرم، والنظر المحرم، والكسب المحرم. فإذا منعه الصيامُ من هذه المحرمات كلها، فإنه يشفع له عند الله يوم القيامة، ويقول : يا رب منعته شهواته فشفعني فيه، فهذا لمن حفظ صيامه، ومنعه من شهواته، فأما من ضيع صيامه، ولم يمنعه عما حرمه الله عليه، فإنه جدير أن يضرب به وجه صاحبه، ويقول له : ضيعكَ اللهُ كما ضيعتني، كما ورد مثل ذلك في الصلاة.

قال بعض السلف : إذا احتضر المؤمن يقال للملك : شم رأسه، قال : أجد في رأسه القرآن، فيقال : شم قلبه، فيقول : أجد في قلبه الصيام، فيقال : شم قدميه، فيقول : أجد في قدميه القيام، فيقال : حفظ نفسه، حفظه الله عز وجل.

وكذلك القرآن إنما يشفع لمن منعه من النوم بالليل، فإن من قرأ القرآن وقام به، فقد قام بحقه ؛ فيشفع له.

وقد ذكر النبي ﷺ رجلاً فقال : « ذاك لا يتوسد القرآن » يعني لا ينام عنه، فيصير له كالوسادة.

وخرج الإمام أحمد، من حديث بُريدة مرفوعاً : « إن القرآن يلقى صاحبه يوم القيامة حتى ينشق عنه قبره كالرجل الشاحب، فيقول : هل تعرفني ؟ أنا صاحبك الذي أظمأتك في الهواجر، وأسهرت ليلك ؛ وكل تاجر من وراء تجارته، فيعطى الملك بيمينه، والخلد بشماله، ويوضع على رأسه تاج الوقار، ثم

يقال له : اقرأ واصعد في دُرج الجنة وغرفها، فهو في صعود ما دام يقرأ، هَذّاً كان أو ترتيلاً ».

وفي حديث عبادة بن الصامت الطويل : « أَن القرآن يأتي صاحبه في القبر فيقول له : أنا الذي كنت أسهر ليلك، وأظمىء نهارك، وأمنعك شهوتك، وسمعك وبصرك، فستجدني من الأخلاَّء خليل صدق، ثم يصعد فيسأل الله له فراشاً ودثاراً، فيؤمر له بفراش من الجنة، وقنديل من الجنة، وياسمين من الجنة، ثم يدفع القرآن في قِبْلَة القبر، فيوسع عليه ماشاء الله من ذلك ».

قال ابن مسعود : ينبغي لقارىء القرآن أن يعرف بليله إذا الناس ينامون، ونهاره إذا الناس يفطرون، وببكائه إذا الناس يضحكون، وبورعه إذا الناس يخلطون، وبصمته إذا الناس يخوضون، وبخشوعه إذا الناس يختالون، وبحزنه إذا الناس يفرحون.

قال محمد بن كعب [1] : كنا نعرف قارىء القرآن بُصُفْرةِ لونه. يشير الى سهره وطول تهجده.

قال وهيب بن الورد [2] : قيل لرجل : ألا تنام ؟ قال : إن عجائب القرآن أطرْنَ نومي. وصحب رجل رجلاً شهرين فلم يره نائماً، فقال : ما لي لا أراك نائماً ؟ قال : إن عجائب القرآن أطَرْن نومي، ما أخرجُ من أعجوبة إلا وقعتُ في أخرى.

قال أحمد ابن أبي الحواري [3] : إني لأقرأ القرآن وأنظر في آية فيحيّر عقلي بها، وأعجب من حفاظ القرآن كيف يَهنيهم النوم، ويسعهم أن يشتغلوا بشيء من الدنيا وهم يتلون كلامَ الله، أما إنهم لو فهموا ما يتلون وعرفوا حقه وتلذذوا

---

(١) هو أبو حمزة القرظي التابعي المدنى. من اهل العلم والرواية، قالوا عنه : ما كان أحداً اعلم بتأويل القرآن منه، وكان يقص في المسجد، فوقع عليهم السقف ومات سنة ١١٨

(٢) هو عبد الوهاب بن الورد المخزومي بالولاء أبو أمية، تابعي متعبد معروف بالحكمة والأدب، وكان الامام سفيان الثوري يسميه : الطيب عاش وتوفي في مكة سنة ١٥٣ هـ. وصغر اسمه وعرف بـ« مُهيب ».

(٣) هو أحمد بن عبد الله بن ميمون ابن أبي الحواري، التغلبي، من الزهاد وكان ثقة في الحديث، مات سنة ١٤٦ هـ.

به، واستحلوا المناجاة به، لذهبَ عنهم النوم فرحاً بما قد رُزقوا[1].

أنشد ذو النون المصري :

منع القُــرآنُ بوعــده ووعيــده مُقَلَ العيون بليلها لا تهجــعُ
فهموا عن الملك العظيم كلامـه فَهمـاً تِذلّ له الرقـاب وتــخضع

فأما من كان معه من القرآن فنام بالليل، ولم يعمل به بالنهار، فإنه ينتصب القرآن خصماً له، يطالبه بحقوقه التي ضيَّعها.

وخرج الإمام أحمد من حديث سَمُرة « أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى في منامه رجلاً مستلقياً على قفاه، ورجل قائم بيده فهر[2] أو صخرة، فيشدخ به رأسه فيتدهده[3] الحجر، فإذا ذهب ليأخذه عاد رأسه كما كان، فيصنع به مثل ذلك، فسأل عنه. فقيل له : هذا رجل آتاه الله القرآن، فنام عنه بالليل ولم يعمل به بالنهار، فهو يفعل به ذلك إلى يوم القيامة » وقد خرجه البخاري بغير هذا اللفظ.

وفي حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن النبي صلى الله عليه وسلم : « يمثل القرآن يوم القيامة رجلاً فيؤتى بالرجل قد حمله فخالف أمره، فيمثل له خصماً، فيقول : يا رب حملته إياي، فبئس حامل تعدى حُدودي، وضيع فرائضي، وركب معصيتي، وترك طاعتي. فلا يزال يقذف عليه بالحجج حتى يقال : شأنك به، فيأخذ بيده فما يرسله حتى يكبه على منخره في النار. ويُؤتى بالرجل الصالح كان قد حمله، وحفظ أمره، فيمثّل خصماً دونه، فيقول : يا رب حملته إياي، فخيرُ حامل حفظ حدودي، وعمل بفرائضي، واجتنب معصيتي، واتبع طاعتي. فلا يزال يقذف له بالحجج حتى يقال : شأنك به، فيأخذ بيده فما يرسله حتى يلبسه حُلَّة الاستبرق، ويعقد عليه تاج الملك ويسقيه كأس الخمر ».

يا من ضيع عمره في غير الطاعة، يـا من فرط في شهره بل في دهره

---

(١) ولو شهد ما نعهده من اكثر القراء الان، من اهتمام بالإلحان، وجعل القرآن مزامير وغناء وأخذ الأجور على التلاوة، وارتكاب المخالفات !! فماذا يقول ؟

(٢) الفهر : الحجر الذي يملىء الكف ويكون رقيقاً.

(٣) أي يتدحرج.

وأضاعه، يا من بضاعته التسويف والتفريط وبئست البضاعة، يا من جعل خصمه القرآن وشهر رمضان، كيف ترجو مِمن جعلتَه خصمكَ الشفاعة.

ويـل لمـــن شفعـــاؤه خصمـــاؤه   والصور في يوم القيامـــة يُنفـــخُ

رب صائم حظه من صيامه الجوع والعطش، وقائم حظه من قيامه السهر، كُلُّ قيام لا ينهى عن الفحشاء والمنكر لا يزيد صاحبه إلا بعداً، وكل صيام لا يصان عن قول الزور والعمل به، لا يورث صاحبه الا مقتاً وردى. يا قوم أين آثار الصيام، أين أنوار القيام.

إنْ كُنت تنوح يا حمام البان   للبين أيـــنَ شواهـــدُ الأحـــزانِ
أجفـانك للدمـــوع أمْ أجفانـــي   لا تُقبـــل دعـــوى بلا برهـــانِ

هذا عبادَ الله شهر رمضان، الذي أنزل فيه القرآن، وفي بقيته للعابدين مستمتع، وهذا كتاب الله يُتلى فيه بين أظهركم ويُسمع، وهو القرآن الذي لو أنزل على جبل لرأيته خاشعاً يتصدع، ومع هذا فلا قلب يخشع، ولا عين تدمع، ولا صيام يصان عن الحرام فينفع، ولا قيام استقام فيرجى لصاحبه أن يشفع، قلوب خلت من التقوى فهي خراب بلقع[1]، وتراكمت عليها ظلمة الذنوب فهي لا تبصر ولا تسمع.

كم تتلى علينا آيات القرآن، وقلوبنا كالحجارة أو أشد قسوة، وكم يتوالى علينا شهر رمضان وحالنا فيه كحال أهل الشقوة، لا الشاب منا ينتهي عن الصبوة، ولا الشيخ منا ينزجر عن القبيح فيلتحق بالصفوة، أين نحن من قوم إذا سمعوا داعي الله أجابوا الدعوة، وإذا تليت عليهم آيات الله وجلت قلوبهم وجَلتْها جَلَوة ؛ وإذا صاموا صامت منهم الألسنة والأسماع والأبصار. أفما لنا فيهم أُسوة ؟ كم بيننا وبين أهل الصفا ؟ بيننا أبعد مما بيننا وبين الصفا والمروة،[2] كلما حسنت منا الأقوال، ساءت منا الأعمال، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وحسبنا الله.

يا نفسُ فازَ الصالحونَ بالتُّقـــى   وأبصروا الحق وقلبي قد عمي

---

(١) البلقع : المكان المقفر الخالي من كل خير.

(٢) الصفا والمروة في مكة، وهو يقول هذا في دمشق للدلالة على بعد المسافة.

يا حسنهم والليل قد جنهمُ ... ونُورهم يفوق نورَ الأنجم
ترنّموا بالذكر في ليلهُم ... فعيشهم قد طاب بالترنّم
قلوبهم بالذكر قد تفرَّغت ... دموعهم كلؤلؤٍ منتظم
أسحارهم بهم لهم قد أشرقت ... وخِلَع الغفران خير القسَمِ
ويحك يا نفس ألا تيقّظٍ ... ينفع قبل أَن تزلْ قدمي
مضى الزمان في توانٍ وهوى ... فاستدركي ما قد بقي واغتنمي

المجلس الثالث
في ذكر العشر الأوسط من شهر رمضان
وذكر نصف الشهر الأخير

في « الصحيحين » عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعتكف في العشر الأوسط من رمضان، فاعتكف عاماً، حتى إذا كانت ليلة إحدى وعشرين، وهي التي يخرج في صبيحتها من اعتكافه، قال : « من كان اعتكف معي فليعتكف العشر الأواخر، وقد أُريت هذه الليلة ثم أُنسيتها، وقد رأيتني أسجد في ماء وطين من صبيحتها، فالتمسوها في العشر الأواخر، والتمسوها في كل وتر ».

فمطرت السماء في تلك الليلة، وكان المسجد على عريش، فوكف المسجد [1] فبصرت عيناي رسول الله صلى الله عليه وسلم على جبهته أثر الماء والطين من صبح إحدى وعشرين.

وهذا الحديث يدل على أن النبي صلى الله عليه وسلم، كان يعتكف العشر الأوسط من شهر رمضان ؛ لابتغاء ليلة القدر فيه، وهذا السياق يقتضي أن ذلك تكرر منه.

وفي رواية في « الصحيحين » في هذا الحديث أنه اعتكف العشر الأول، ثم اعتكف العشر الأوسط، ثم قال : « إني أتيت فقيل لي : إنها في العشر الأواخر، فمن أحب منكم أن يعتكف فليعتكف » فاعتكف الناس معه.

وهذا يدل على أن ذلك كان منه قبل أن يتبين له أنها في العشر الأواخر، ثم لما تبين له ذلك، اعتكف العشر الأواخر حتى قبضه الله عز وجل، كما رواه عنه عائشة، وأبو هريرة وغيرهما من الصحابة رضي الله عنهم.

وروي أن عمر جمع جماعة من الصحابة فسألهم عن ليلة القدر، فقال

---

(١) أي قطر سقفه وَدلف.

بعضهم : كنا نراها في العشر الأوسط، ثم بلغنا أنها في العشر الأواخر.

وسيأتي الحديث بتمامه في موضع آخر إن شاء الله.

وخرج ابن أبي عاصم [1] في كتاب الصيام وغيره، من حديث خالد بن مجدوح عن أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « التمسوها في أول ليلة أو في تسع أو في أربعة عشرة ». وخالد هذا فيه ضعف.

وهذا يدل على أنها تطلب في ليلتين من العشر الأول، وفي ليلة من العشر الأوسط، وهي أربع عشرة، وقد سبق من حديث واثلة بن الأسقع مرفوعاً « إن الانجيل أنزل لثلاث عشرة من رمضان ».

وقد ورد الأمر بطلب ليلة القدر في النصف الأواخر من رمضان، وفي أفراد ما بقي من العشر الأوسط من هذا النصف، وهما ليلتان : ليلة سبع عشرة، وليلة تسع عشرة.

أما الأول : فخرجه الطبراني من حديث عبد الله بن أنيس : أنه سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن ليلة القدر فقال : أُريتها ونسيتها، فتحرها في النصف الأواخر »، ثم عاد فسأله، فقال :

« التمسْها في ليلة ثلاث وعشرين تمضي من الشهر ».

ولهذا المعنى والله اعلم، كان أُبيّ بن كعب يقنت في الوتر في ليالي النصف الأواخر، لأنه تُرجى فيه ليلة القدر.

وأيضاً فكل زمان فاضل من ليل أو نهار فإن آخره افضل من أوله، كيوم عرفه ؛ ويوم الجمعة ؛ وكذا الليل والنهار عموماً، آخره أفضل من أوله. ولذلك كانت الصلاة الوسطى صلاة العصر، كما دلت الأحاديث الصحيحة عليه، وآثار السلف الكثيرة تدل عليه، وكذلك عشري ذي الحجة والمحرم آخرهما أفضل من أولهما.

وأما الثاني : ففي « سنن أبي داود » عن ابن مسعود مرفوعاً : « اطلبوها

---

(١) هو أحمد بن عمرو الشيباني، أبو بكر ابن النبيل، قاضي اصبهان، وصاحب المؤلفات الكثيرة، وقد ذهب أكثرها في فتنة الزنج فأعاد الكثير من حفظه، ومن كتبه « كتاب السنّة » وهو في الاعتقاد وقد خرجه أستاذنا الشيخ محمد ناصر الدين الألباني المحدث، وطبع في المكتب الاسلامي بمجلدين. وكتاب «الأوائل» طبع المكتب الاسلامي بتحقيق الدكتور عبد الله الجبوري.

ليلة سبع عشرة من رمضان، وليلة إحدى وعشرين، وليلة ثلاث وعشرين » ثم سكت. وفي رواية : « ليلة تسع عشرة »، وقيل : إن الصحيح وقفه على ابن مسعود[1]، فقد صح عنه أنه قال : « تحروا ليلة القدر ليلة سبع عشرة صبيحة بدر، وإحدى وعشرين ». وفي رواية عنه قال : « ليلة سبع عشرة، فإن لم تكن ففي تسع عشرة »[2].

ويروى من حديث عائشة : أن النبي ﷺ كان إذا كان ليلة تسع عشرة من رمضان شد المئزر[3] وهجر الفراش حتى يفطر.

قال البخاري : تفرد به عمر بن مسكين، ولا يتابع عليه .

وقد روي عن طائفة من الصحابة : أنها تطلب ليلة سبع عشرة.

وقالوا : لأن صبيحتها كان يوم بدر، فروي عن علي، وابن مسعود، وزيد بن الأرقم، وزيد بن ثابت، وعمرو بن حريث.

ومنهم من روي عنه : أنها ليلة تسع عشرة. وقد روي عن علي، وابن مسعود، وزيد بن أرقم.

والمشهور عند أهل السير والمغازي أن ليلة بدر كانت ليلة سبع عشرة، وكانت ليلة جمعة. وكان زيد بن ثابت لا يحيي ليلة من رمضان كما يحيي ليلة سبع عشرة، ويقول : إن الله فَرَق في صبيحتها بين الحق والباطل، وأذل في صبيحتها أئمة الكفر.

وحكى الإمام أحمد هذا القول عن أهل المدينة، أن ليلة القدر تطلب ليلة سبع عشرة. قال في رواية أبي داود : فيمن قال لامرأته: أنت طالق ليلة القدر، قال : يعتزلها إذا دخل العشر. وأهل المدينة يرونها ــ قبل العشر ــ في السبع عشرة، إلّا أن المثبت عن النبي ﷺ في العشر الأواخر.

---

(١) وهذا له حكم المرفوع، لأنه لا يعرف إلا بالنقل، ولا يدرك بالرأي والعقل.

(٢) أطال المؤلف رحمه الله في ذكر الاختلافات حول تعيين ليلة القدر، مما يخرج هذه الرسالة عن وضعها المطلوب: رسالة وعظ وتذكر. لذلك اكتفيت بما تقدم في بعض المواضع . . ومن أراد الكل فانه موجود في طبعتنا الأولى وفي لطائف المعارف.

(٣) المئزر : الإزار، وشده : قيل : كناية عن اجتناب النساء. وقيل : عن غاية الجد في العبادة، كما ذكره الخطابي. وقوى الحافظ ابن حجر الاحتمال الأول، كما ذكره الشوكاني.

وحكي عن عامر بن عبد الله بن الزبير أنه كان يواصل ليلة سبع عشرة.
وعن أهل مكة أنهم كانوا لا ينامون فيها ويعتمرون.

وحكي عن أبي يوسف ومحمد صاحبي أبي حنيفة [1] أن ليلة القدر في النصف الأواخر من رمضان، من غير تعيين لها بليلة، وإن كانت في نفس الأمر عند الله معينة [2].

وروي عن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام قال: ليلة القدر ليلة سبع عشرة، ليلة الجمعة. خرجه ابن أبي شيبة. وظاهره أنها إنما تكون ليلة القدر إذا كانت ليلة جمعة لتوافق ليلة بدر.

وروي من حديث جابر قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأتي قُباء صبيحة سبع عشرة من رمضان، أي يومٍ كان. خرجه أبو موسى المديني.

وقد قيل: إن المعراج كان فيها أيضاً. ذكر ابن سعد عن الواقدي عن أشياخه: أن المعراج كان ليلة السبت لسبع عشرة خلت من رمضان قبل الهجرة إلى السماوات، وأن الإسراء كان ليلة سبع عشرة من ربيع الأول قبل الهجرة بسنة إلى بيت المقدس. وهذا على قول من فرق بين المعراج الإسراء، فجعل المعراج الى السماء؛ كما ذكر في سورة ﴿ النجم ﴾ و﴿ الإسراء ﴾ الى بيت المقدس خاصة، كما ذكر في سورة ﴿ سبحان ﴾.

وقد قيل: ان ابتداء نبوة النبي صلى الله عليه وسلم كان في سابع عشر من رمضان [3].

---

(1) الأول: يعقوب بن ابراهيم الأنصاري، الفقيه الإمام، العلامة، لزم أبا حنيفة فغلب عليه القول بالرأي، وولي القضاء في بغداد، توفي سنة ١٨٢ هـ.
والثاني: الإمام محمد بن الحسن أصله من قرية حرستا، شرقي دمشق، سمع من الإمام مالك، ثم غلب عليه مذهب أبا حنيفة. وكان فصيحاً عالماً، ألّف الكثير من الكتب، مات في الري سنة ١٨٩ هـ.

(2) وهذا يدل على ان الحق عندهما واحد. لا يتعدّد وإن اختلفت وجهات النظر عند العباد، ومن وفق الى اصابة الحق كان له الأجرين عند الله، وإلّا كان له أجر التحري والسعي، وعفا الله عن الخطأ والسهو.

(3) وهذه الأخبار ـ هذا والذي يليه ـ ليس لها سند صحيح. وكذلك من جعلها في السابع والعشرين من شهر رجب.

قال أبو جعفر محمد بن علي الباقر [1]: نزل جبريل عليه السلام على رسول الله ﷺ ليلة السبت وليلة الأحد، ثم ظهر له بحراء برسالة الله عز وجل يوم الإثنين لسبع عشرة خلت من رمضان.

وأصح ما روي في الحوادث في هذه الليلة أنها ليلة بدر، كما سبق أنها كانت ليلة سبع عشرة. وقيل: تسع عشرة. والمشهور أنها كانت ليلة سبع عشرة، كما تقدم. وصبيحتها هو الفرقان يوم التقى الجمعان.

وسمي يوم الفرقان، لأن الله تعالى فرق فيه بين الحق والباطل، وأظهر الحق وأهله، على الباطل وحزبه، وعلت كلمة الله وتوحيده، وذل أعداؤه من المشركين وأهل الكتاب [2].

وكان ذلك في السنة الثانية من الهجرة، فإن النبي ﷺ قدم المدينة في ربيع الأول في أول سنة من سني الهجرة، ولم يفرض رمضان في ذلك العام، ثم صام عاشوراء، وفرض عليه رمضان في ثاني سنة، فهو أول رمضان صامه، وصامه المسلمون معه، ثم خرج النبي ﷺ لطلب عِير لقريش قدمت من الشام الى المدينة في يوم السبت لاثنتي عشرة ليلة خلت من رمضان، وأفطر في خروجه اليها.

قال ابن المسيب : قال عمر : غزونا مع رسول الله ﷺ غزوتين في رمضان : يوم بدر، ويوم الفتح، وأفطرنا فيهما.

وكان سبب خروجه حاجة أصحابه، خصوصاً المهاجرين ﴿ الذين أُخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضواناً، وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون ﴾ [3].

وكانت هذه العير معها أموال كثيرة لأعدائهم الكفار الذين أَخرجوهم من ديارهم وأموالهم ظلماً وعدواناً، كما قال الله تعالى : ﴿ أُذن للذين يقاتَلون

---

(١) هو الامام محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم، المعروف بـ أبي جعفر الباقر، وكان من كبار العلماء والعباد، توفي بالحميمة قرب البتراء في الأردن سنة ١١٤هـ.

(٢) يقصد في ذلك اليهود خاصة، فإنهم كانوا في المدينة، يكيدون للنبي ﷺ بالخفاء.

(٣)سورة الحشر الآية ٨.

بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير. الذين أُخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ﴾[1].

فقصد النبي ﷺ أن يأخذ أموال هؤلاء الظالمين المعتدين على أولياء الله وحزبه وجنده، فيردها على أولياء الله وحزبه المظلومين المخرجين من ديارهم وأموالهم، ليتقوَّوا بها على عبادة الله وطاعته وجهاد أعدائه، وهذا مما أحله الله لهذه الأمة، فإنه أُحل لهم الغنائم ولم تحل لأحد قبلهم، وكان عدة من معه ثلثمائة وبضعة عشر، وكانوا على عدة أصحاب طالوت الذين جازوا معه النهر، وما جازه معه إلا مؤمن.

وفي « سنن أبي داود » من حديث عبد الله بن عمرو قال : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم بدر في ثلاثمائة وخمسة عشر من المقاتلة، كما خرج طالوت، فدعا لهم رسولِ الله ﷺ حين خرجوا، فقال : « اللهم إنهم حفاة فاحملهم، وإنهم عراة فاكسهم، وإنهم جياع فأشبعهم »

ففتح الله يوم بدر، فانقلبوا حين انقلبوا وما فيهم رجل إلا وقد رجع بجمل أو جملين، واكتسوا وشبعوا.

وكان أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم حين خرجوا على غاية من قِلَّة الظَهر والزاد، فإنهم لم يخرجوا مستعدين لحرب ولا لقتال، إنما خرجوا لطلب العير، فكان معهم نحو سبعين بعيراً يعتقبونها بينهم كل ثلاثة على بعير، وكان للنبي ﷺ زميلان، فكانوا يعتقبون على بعير واحد، فكان زميلاه يقولان له : اركب يا رسول الله حتى نمشي عنك، فيقول : « ما أنتما بأقوى على المشي مني، ولا أنا بأغنى عن الأجر منكما ».

ولم يكن معهما إلا فرسان، وقيل : ثلاثة، وقيل : فرس واحد للمقداد.

وبلغ المشركين خروج النبي ﷺ لطلب العير فأخذ أبو سفيان بالعير نحو الساحل، وبعث إلى مكة يخبرهم الخبر، ويطلب منهم أن ينفروا لحماية عيرهم، فخرجوا مستصرخين، وخرج أشرافهم ورؤساؤهم، وساروا نحو بدر.

واستشار النبي ﷺ في القتال، فتكلم المهاجرون فسكت عنهم، وإنما

---

(١) سورة الحج الآيتان ٣٩، ٤٠.

كان قصده الأنصار، لأنه ظن أنهم لم يبايعوه إلا على نصرته على من قصده في ديارهم.

فقام سعد بن عُبادة فقال : إيانا تريد ؟ يعني الأنصار، والذي نفسي بيده لو أمرتنا أن نخوض في هذا البحر لخضناه، ولو أمرتنا ان نضرب أكبادها إلى برك الغماد [1] لفعلنا.

وقال له المقداد : لا نقول لك كما قال بنو إسرائيل لموسى : ﴿ فاذهب أنت وربك فقاتلا إنّا ها هنا قاعدون ﴾ [2] ولكن نقاتل عن يمينك وشمالك وبين يديك ومن خلفك. فسرّ النبي ﷺ بذلك، وأجمع على القتال، وبات تلك الليلة، ليلة الجمعة سابع عشر رمضان، قائماً يصلي ويبكي ويدعو الله ويستنصره على أعدائه.

وفي « المسند » عن علي ابن أبي طالب قال : لقد رأيتنا وما فينا إلا نائم، إلا رسول الله ﷺ تحت شجرة يصلي ويبكي حتى أصبح.

وفيه أيضا عنه قال : أصابنا طش [3] من مطر، يعني ليلة بدر. فانطلقنا تحت الشجر والحجف [4] نستظل بها من المطر، وبات رسول الله ﷺ يدعو ربه ويقول : « إن تهلك هذه الفئة لا تعبد » فلما أن طلع الفجر نادى : « الصلاة عباد الله »، فجاء الناس من تحت الشجرة والحجف، فصلى بنا رسول الله ﷺ، وحثّ على القتال، وأمدَّ الله تعالى نبيه والمؤمنين بنصر من عنده وبجند من جنده، كما قال الله تعالى : ﴿ إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة مردفين. وما جعله الله إلا بشرى ولتطمئن به قلوبكم وما النصر إلا من عند الله إن الله عزيز حكيم ﴾ [5].

وفي « صحيح البخاري » : أن جبريل قال للنبي ﷺ : ما تعدون أهل

---

(١) هو موضع بعيد من جهة اليمن، ولا يخفى أن مكة هي يمانية بالنسبة للمدينة، فكأنه يقول : نسير معك حتى نجاوز مكة.

(٢) سورة المائدة الآية ٢٤.

(٣) الطش : المطر الضعيف القليل.

(٤) الحجف : أي التروس.

(٥) سورة الأنفال الآيتان ٩، ١٠.

بدر فيكم ؟ قال : « من أفضل المسلمين » ـــ أو كلمة نحوها. قال : وكذلك من شهد بدراً من الملائكة.

وقال الله تعالى : ﴿ ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة ﴾[1] وقال :

﴿ فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى ﴾[2].

وروي ان النبي ﷺ لما رآهم قال : « اللهم إن هؤلاء قريش قد جاءت بخُيلائها يكذبون رسولك، فأنجز لي ما وعدتني »، فأتاه جبريل فقال : خذ قبضة من تراب فارمهم بها، فأخذ قبضة من حصباء الوادي فرمى بها نحوهم، وقال : « شاهت الوجوه »، فلم يبق مشرك إلا دخل في عينيه ومنخره وفمه شيء، ثم كانت الهزيمة.

وقال حكيم بن حزام[3] : سمعنا يوم بدر صوتاً وقع من السماء كأنه صوت حصاة على طِست،[4] فرمى رسول الله ﷺ تلك الرمية فانهزمنا، ولما قدم الخبر على أهل مكة قالوا لمن أتاهم بالخبر : كيف حال الناس، قال : لا شيء، والله إن كان إلا أن لقيناهم فمنحناهم أكتافنا يقتلوننا ويأسروننا كيف شاؤوا، وايم الله مع ذلك ما لمت الناس، لقينا رجالاً على خيل بُلق بين السماء والأرض ما يقوم لها شيء.

وقتل الله صناديد كفار قريش يومئذ. منهم عتبة بن ربيعة، وشيبة، والوليد ابن عتبة، وأبو جهل وغيرهم. وأسروا منهم سبعين.

وقصة بدر يطول استقصاؤها. وهي مشهورة في التفسير، وكتب « الصحاح » و « السنن » و « المسانيد » و « المغازي » و « التواريخ » وغيرها. وإنما المقصود هاهنا التنبيه على بعض مقاصدها.

---

(١) سورة آل عمران الآية ١٢٣.

(٢) سورة الأنفال الآية ١٧.

(٣) هو حكيم بن حزام بن خويلد القرشي، عمته السيدة خديجة أم المؤمنين رضي الله عنهما وكان صديقاً للنبي ﷺ قبل البعثة وبعدها. وكان من سادات قريش في الجاهلية والاسلام. وأكرمه النبي ﷺ مع أبي سفيان صخر بن حرب يوم فتح مكة فقال : « من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن دخل دار حكيم ابن حزام فهو آمن »، توفي بالمدينة سنة ٥٤ هـ. ورواية حكيم هذه أنه شاهد الحادثة قبل اسلامه.

(٤) الطست : إناء واسع من نحاس.

وكان عدو الله إبليس قد جاء إلى المشركين في صورة سُراقة بن مالك. وكانت يده في يد الحارث بن هشام. وجعل يشجعهم ويعدهم ويمنيهم. فلما رأى الملائكة، هرب وألقى نفسه في البحر. وقد أخبر الله عن ذلك بقوله تعالى: ﴿ وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم وقال لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جار لكم فلما تراءت الفئتان نكص على عقبيه وقال إني بريء منكم إني أرى ما لا ترون إني أخاف الله والله شديد العقاب ﴾[١].

وفي « الموطأ »[٢] حديث مرسل[٣] عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: « ما رؤي الشيطان أحقر ولا أدحر[٤] ولا أصغر من يوم عرفة، إلا ما أري يوم بدر. قيل: وما رأى يوم بدر؟ قال: « رأى جبريل يزع الملائكة ».[٥]

فإبليس عدو الله يسعى جهده في إطفاء نور الله وتوحيده، ويغري بذلك أولياءه من الكفار والمنافقين، فلما عجز عن ذلك بنصر الله نبيه و إظهار دينه على الدين كله، رضي بإلقاء الفتن بين المسلمين، واجتزىء منهم بمحقرات الذنوب، حيث عجز عن ردهم عن دينهم.

كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: « إن الشيطان قد يئس أن يعبده المصلون في جزيرة العرب، ولكن في التحريش بينهم ». خرجه مسلم من حديث جابر، رضي الله عنه.

وخرج الإمام أحمد، والنسائي، والترمذي، وابن ماجه، من حديث عمرو ابن الأحوص قال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول في حجة

---

(١) سورة الأنفال الآية ٤٨.

(٢) في موطأ الإمام مالك « ما رؤي الشيطان يوماً، هو فيه أصغر ولا أدحرُ ولا أحقر ولا أغيظ، منه في يوم عرفة، وما ذاك إلا لِما رأى من تنزل الرحمة، وتجاوز الله عن الذنوب العظام، إلا ما أُري يوم بدرٍ » قيل: وما رأى يوم بدر يا رسول الله؟ قال: « أما إنه قد رأى جبريل يزع الملائكة » وهذا الحديث قد وصله الحاكم في المستدرك عن أبي الدرداء.

(٣) الحديث المرسل: الذي سقط من سنده الصحابي، والأصل فيها الانقطاع، والضعف، وأستثني من ذلك بعض مراسيل كبار التابعين.

(٤) أي أبعد وأذل، والدحر: الابعاد عن الخير.

(٥) يزع الملائكة: أي يرتبهم ويعبئهم للقتال، ومنه قوله تعالى: ﴿ وحشر لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير فهم يوزعون ﴾.

الوداع : « ألا إن الشيطان قد أيس أن يُعبد في بلدكم هذا أبداً، ولكن سيكون له طاعة في بعض ما تحتقرون من أعمالكم فيرضى بها ».

وفي « صحيح الحاكم » عن ابن عباس : أن النبي صلى الله عليه وسلم خطب في حجة الوداع فقال : « إن الشيطان قد أيس أن يُعبد بأرضكم، ولكنه يرضى أن يطاع فيما سوى ذلك، فيما تحاقرون من أعمالكم، فيرضى بها، فاحذروا، يا أيها الناس إني قد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبداً : كتاب الله، وسنة نبيه ».

ولم يعظم على إبليس شيء أكثر من بعثة محمد ﷺ ، وانتشار دعوته في مشارق الأرض ومغاربها، فإنه أيس أن تعود أمته كلهم الى الشرك الأكبر.

قال سعيد بن جبير : لما رأى إبليس النبي صلى الله عليه وسلم قائماً بمكة يصلي رنَّ، [1] ولما افتتح النبي ﷺ مكة رنَّ رنة أُخرى، فاجتمعت اليه ذريته، فقال : أيّسوا أن تردُّوا أمة محمد ﷺ إلى الشرك بعد يومكم هذا، ولكن افتنوهم في دينهم، وأفشوا فيهم النوح والشعر. خرجه ابن أبي الدنيا.

وخرج الطبراني باسناده عن مجاهد عن ابي هريرة قال : إن إبليس رنَّ لما أنزلت فاتحة الكتاب، وأنزلت بالمدينة.

والمعروف هذا عن مجاهد من قوله، قال : رنّ إبليس أربع رنات : حين لُعن، وحين أُهبط من الجنة، وحين بُعث محمد ﷺ، وحين أنزلت فاتحة الكتاب، وأنزلت بالمدينة. خرجه وكيع وغيره.

وقال بعض التابعين : لما أنزلت هذه الآية : ﴿ والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ﴾ [2] بكى إبليس، يشير الى شدة حزنه بنزولها، لما فيها من الفرح لأهل الذنوب، فهو لا يزال في همّ وغم وحزن منذ بعث النبي ﷺ، لما رأى منه ومن أمته ما يهمه ويغيظه.

قال ثابت : [3] لما بعث النبي ﷺ قال إبليس لشياطينه : لقد حدث أمر

---

(١) الرنين : الصوت والصياح.

(٢) سورة آل عمران الآية ١٣٥ .

(٣) ثابت بن اسلم البُناني البصري تابعي، وكان ثقة، ولكن لا ندري ما هو السند اليه في هذه القصة !!

فانظروا ما هو، فانطلقوا ثم جاؤوه فقالوا : ما ندري ؟ قال إبليس : أنا آتيكم بالخبر، فذهب وجاء، قال : قد بعث محمد ﷺ، فجعل يرسل شياطينه إلى أصحاب النبي ﷺ فيجيؤون بصحفهم ليس فيها شيء، فقال : ما لكم لا تصيبون منهم شيئاً ؟ ! قالوا : ما صحبنا قوماً قط مثل هؤلاء، نُصيب منهم، ثم يقومون الى الصلاة فيمحى ذلك، فقال : رويداً إنهم عسى أن يفتح الله لهم الدنيا، هنالك تصيبون حاجتكم منهم.

وعن الحسن قال : قال إبليس : سوَّلتُ لأمةِ محمد المعاصي، فقطعوا ظهري بالاستغفار، فسوَّلتُ لهم ذنوباً لا يستغفرونَ منها، يعني الأهواء[1].

ولا يزال إبليس يرى في مواسم المغفرة والعتق من النار ما يسوؤه. فيوم عرفة لا يُرى أصغر ولا أحقر ولا أدحر فيه منه، لما يرى من تنزُّل الرحمة، وتجاوز الله عن الذنوب العظام، إلا ما رؤي يوم بدر. وروي انه لما رأى تنزُّل المغفرة للأمة في حجة الوداع يوم النحر بمزدلفة، أهوى يحثي[2] على رأسه التراب، ويدعو بالويل والثبور، فتبسم النبي ﷺ مما رأى من جزع الخبيث.

وفي شهر رمضان يلطف الله بأمة محمد ﷺ، فتَغلُ فيه الشياطين ومردة الجن، حتى لا يقدروا على ما كانوا يقدرون عليه في غيره من تسويل الذنوب، ولهذا تقل المعاصي في شهر رمضان في الأمة لذلك.

ففي « الصحيحين » عن ابي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : إذا دخل رمضان فتِّحت أبواب السماء وغلِّقت أبواب جهنم وسلسلت الشياطين » ولمسلم : « فتِّحت أبواب الرحمة ».

وله أيضاً : عن ابي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إذا جاء رمضان فتِّحت أبواب الجنة وغلِّقت أبواب النار وصفدت الشياطين » وخرج منه البخاري، ذكر فتح أبواب الجنة.

---

(١) عرفت الأقوال الضالة في العقائد بالأهواء، كما عرفت الأفعال الضارّة بالأعمال بالبدع. وهذا شاهد فإن أصحاب الأهواء والبدع يندفعون فيما هم عليه ظناً منهم أنه خير فيكثرون منه، وما ذاك إلا من وسوسة الشيطان نعوذ بالله من وساوسه.

(٢) يقال : حثا يحثو، وحثى يحثي أي يلقي التراب على رأسه.

وللترمذي وابن ماجه عنه عن النبي ﷺ قال: «إذا كان أول ليلة من شهر رمضان صفدت الشياطين ومردة الجن وغُلقت أبواب النار فلم يفتح منها باب، وفتحت أبواب الجنّة فلم يغلق منها باب، وينادي منادٍ: يا باغي الخير أقبل، ويا باغي الشرّ أقصر، ولله عتقاء من النار، وذلك في كل ليلة».

وفي رواية للنسائي: «وتغل فيه مردة الشياطين».

وللامام أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «أعطيت أمتي في رمضان خمس خصال لم تعطهن أمة قبلهم: خلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك، وتستغفر لهم الملائكة حتى يفطروا، ويزين الله لهم كل يوم جنّته، ثم يقول: يوشك عبادي الصالحون أن يلقوا عنهم المؤنة والأذى، ويصيروا اليك، وتصفّد فيه مردة الشياطين فلا يخلصون فيه إلى ما كانوا يخلصون اليه في غيره، ويغفر لهم في آخر ليلة». قيل: يا رسول الله، أهي ليلة القدر؟ قال: «لا، ولكن العامل إنما يوفى أجره إذا قضى عمله».

وفي ليلة القدر تنتشر الملائكة في الأرض فيبطل سلطان الشياطين، كما قال الله تعالى:

﴿ تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر. سلام هي حتى مطلع الفجر ﴾[1].

وفي «المسند» عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال. «ان الملائكة تلك الليلة في الأرض أكثر من عدد الحصى»[2].

وفي «صحيح ابن حبان» عن جابر رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: في ليلة القدر «لا يخرج شيطانها، حتى يخرج فجرها».

وفي «المسند» من حديث عُبادة بن الصامت عن النبي ﷺ انه قال في ليلة القدر: «لا يحل لكوكب أن يرمى به حتى يصبح، وإن أمارتها أن الشمس تخرج صبيحتها مستوية ليس لها شعاع مثل القمر ليلة البدر، لا يحل للشيطان أن يخرج معها يومئذ».

---

(١) سورة القدر الآيتان ٤، ٥

(٢) أي يكثر نزول الملائكة لكثرة بركتها وما يتلى فيها من القرآن الكريم وكثرة الذاكرين.

وقال مجاهد[1] في قوله تعالى: ﴿ سلام هي حتى مطلع الفجر ﴾[2] قال: سلام أن يحدث فيها داء، أو يستطيع شيطان العمل فيها.

وعنه قال: ليلة القدر ليلة سالمة، لا يحدث فيها حدث ولا يرسل شيطان.

وعنه قال: هي سالمة لا يستطيع الشيطان أن يعمل فيها سوءاً، ولا يحدث فيها أذى.

وعن الضحاك عن ابن عباس قال: في تلك الليلة تصفّد مردة الشياطين، وتغل عفاريت الجن، وتفتح فيها أبواب السماء كلها، ويقبل الله فيها التوبة لكل تائب، فلذلك قال: ﴿ سلام هي حتى مطلع الفجر ﴾.

ويروى عن أُبي بن كعب رضي الله عنه قال: « لا يستطيع الشيطان أن يصيب فيها أحداً بخبل، أو داء، أو ضرب من ضروب الفساد، ولا ينفذ فيها سحر ساحر ».

وكل هذا يدل على كف الشياطين فيها عن انتشارهم في الأرض، ومنعهم من استراق السمع فيها من السماء.

ابن آدم لو عرفت قدر نفسك ما أهنتها بالمعاصي، أنت المختار من المخلوقات، ولك أعدت الجنة إن اتقيت، فهي إقطاع المتقين، والدنيا إقطاع إبليس، فهو فيها من المنظَرين، فكيف رضيت لنفسك بالإعراض عن إقطاعك، ومزاحمة إبليس على إقطاعه، وأن تكون غداً معه في النار من جملة أتباعه، إنما طردناه عن السماء لأجلك حيث تكبر عن السجود لأبيك، وطلبنا قربك لتكون من خاصتّنا وحزبنا، فعاديتنا وواليتِ عدوّنا

﴿ أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلاً ﴾[3].

---

(١) أنظر تفسير مجاهد ص ٧٧٣ بتحقيق الشيخ عبد الرحمن السورتي. طبع بإشراف الشيخ عبدالله ابراهيم الأنصاري.
وانظر زاد المسير ٩/١٨٠ فقد أورد ابن الجوزي فوائد كثيرة حول هذه الليلة المباركة. وهو من طبع المكتب الاسلامي.

(٢) سورة القدر الآية ٥.

(٣) سورة الكهف الآية ٥٠

رعى الله من نهوى وإن كان ما رعى — حفظنا له العهدَ القديم فضيّعا
وصاحبتَ قوماً كنتُ أنهاكَ عنهمُ — وحقك ما أبقيتَ للصلح موضعا

أبشروا يا معشر المسلمين، فهذه أبواب الجنة الثمانية في هذا الشهر لأجلكم قد فتحت، ونسماتها على قلوب المؤمنين قد نفحت، وأبواب الجحيم كلها لأجلكم مغلقة، وأقدام إبليس وذريته موثقة، ففي هذا الشهر يؤخذ من إبليس بالثأر، وتتخلّص العصاة من أسره، فما يبق لهم عنده آثار، كانوا فراخه قد غذاهم بالشهوات في أوكاره، فهجروا اليوم تلك الأوكار، ونقضوا معاقل حصونه، بمعاول التوبة والاستغفار، خرجوا من سجنه إلى حصن التقوى والايمان، فأمِنوا من عذاب النار، قصموا ظهره بكلمة التوحيد، فهو يشكو ألم الانكسار، في كل موسم من مواسم الفضل يحزن، وفي هذا الشهر يدعو بالويل لما يرى من تنزّل الرحمة ومغفرة الأوزار، غلب حزب الرحمن، وهرب حزب الشيطان، فما بقي سلطان، إلّا على الكفار، عُزل سلطان الهوى، وصارت الدولة لسلطان التقوى، ﴿ فاعتبروا يا أولي الأبصار ﴾[١] .

يا نُدماي صحا القلبُ صحا — فاطردوا عني الصِبا والمرحا
هزمَ العقلُ جنوداً للهوى — فأسدى لا تعجبوا إن صلحا
زجرَ الحقُّ فؤادي فارعوى — وأفاق القلب مني وصحا
بادروا التوبة مِنْ قبل الرّدى — فمناديه ينادينا الوحى

عباد الله، شهر رمضان قد انتصف. فمن منكم حاسب نفسه فيه لله وانتصف. من منكم قام في هذا الشهر بحقه الذي عرف. من منكم عزم قبل غلق أبواب الجنة أن يبني له غُرفا من فوقها غرف. ألا إن شهركم قد أخذ في النقص. فزيدوا أنتم في العمل. فكأنكم به وقد انصرف. وكل شهر فعسى أن يكون منه خلف. وأما شهر رمضان فمن أين لكم منه خلف.

تنصف الشهر وآلهفاه وانهدما — واختص بالفوز بالجنات من خدما
وأصبح الغافل المسكين مُنكسراً — مثلي فيا ويحه يا عُظم ما حُرما
من فاته الزرع في وقت البذار فما — تراه يحصد إلا الهمّ والندما
طوبى لمن كانت التقوى بضاعته — في شهره وبحبل الله معتصما

(١) سورة الحشر الآية ٢ .

المجلس الرابع

في ذكر العشر الأواخر من رمضان

في « الصحيحين » عن عائشة رضي الله عنها قالت : كان رسول الله ﷺ إذا دخل العشر شد مئزره أحيا ليله وأيقظ أهله. هذا لفظ البخاري.

ولفظ مسلم : أحيا الليل ، وأيقظ أهله، وجدّ وشدّ المئزر.

وفي رواية لمسلم عنها قالت : كان رسول الله ﷺ يجتهد في العشر الأواخر ما لا يجتهد في غيره. كان النبي صلّى الله عليه وسلم يخصّ العشر الأواخر من رمضان بأعمال لا يعملها في بقية الشهر. فمنها إحياء الليل. فيحتمل أن المراد إحياء الليل كله. وقد روي من حديث عائشة من وجه فيه ضعف بلفظ : وأحيا الليل كله[1].

وفي « المسند » من وجه آخر عنها، قالت : كان النبي ﷺ يخلط العشرَين بصلاة ونوم، فاذا كان العشر — يعني الأخير — شمر وشد المئزر.

وخرج الحافظ أبو نُعيم بإسناد فيه ضعف، عن أنس قال : كان النبي ﷺ إذا شهد رمضان قام ونام، فإذا كان أربعاً وعشرين، لم يذق غمضاً.

ويحتمل أن يراد بإحياء الليل، إحياء غالبه.

وقد روي عن بعض المتقدمين من بني هاشم — ظنه الراوي أبا جعفر محمد بن علي — أنه فسّر ذلك بإحياء نصف الليل، وقال : من أحيا نصف الليل فقد أحيا الليل.

وقد سبق مثل هذا في قول عائشة رضي الله عنها : كان النبي ﷺ يصوم شعبان كله، إلا قليلاً.

---

(١) وهذا الاحتمال مردود بما صحّ من النهي عن احياء طول الليل. وسوف يمر بك بعض ذلك.

ويؤيّده ما في « صحيح مسلم » عن عائشة رضي الله عنها قالت : ما أعلمه ﷺ قام ليلة حتى الصباح.

وذكر بعض الشافعية في إحياء ليلتي العيدين، أنه تحصل فضيلة الإحياء بمعظم الليل ؛ قال : وقيل : تحصل بساعة، وقد نقل الشافعي في « الأم » عن جماعة من خيار أهل المدينة ما يؤيّده ؛ ونقل بعض أصحابهم عن ابن عباس : أن إحياءها يحصل بأن يصلي العشاء في جماعة ؛ ويعزم على أن يصلي الصبح في جماعة.

وقال مالك في « الموطأ » : بلغني أن ابن المسيب قال : من شهد العشاء ليلة القدر — يعني في جماعة — فقد أخذ بحظه منها. وكذا قال الشافعي في القديم [1] : من شهد العشاء والصبح ليلة القدر فقد أخذ بحظه منها.

وقد روي هذا من حديث أبي هريرة مرفوعاً : « من صلى العشاء الآخرة في جماعة في رمضان، فقد أدرك ليلة القدر »، خرجه أبو الشيخ الأصبهاني، ومن طريقه أبو موسى المديني، وذكر أنه روي من وجه آخر عن أبي هريرة نحوه، ويروى من حديث علي بن أبي طالب مرفوعاً، لكن إسناده ضعيف جداً.

ويروى من حديث أبي جعفر محمد بن علي مرسلاً : أن النبي ﷺ قال : « من أتى عليه رمضان صحيحاً مسلماً، صام نهاره، وقام وصلّى ورداً من ليله، وغض بصره، وحفظ فرجه ولسانه ويده ؛ وحافظ على صلاته في الجماعة ؛ وبكّر إلى جُمعه، فقد صام الشهر، واستكمل الأجر، وأدرك ليلة القدر، وفاز بجائزة الرب عزّ وجل ».

قال أبو جعفر : جائزة الرب لا تشبه جوائز الأمراء، خرجه ابن أبي الدنيا.

ولو نذر قيام ليلة القدر، لزمه أن يقوم من ليالي شهر رمضان ما يتقين به قيامها، فمن قال من العلماء : إنها في جميع الشهر يقول : يلزمه قيام جميع ليالي الشهر، ومن قال : هي في النصف الآخر من الشهر، قال : يلزمه قيام

---

(١) أي مذهب الشافعي قبل أن يدخل مصر، فإنه قد اطلع بعد ذلك على أدلة جعلته يرجع عن مذهبه القديم، ويُفتي بأقوال جديدة، ومن هنا نرى أن إمام المذهب لم يتمسك بالمذهب بل تركه تبعاً للدليل، وفي هذا عبرة للمتعصبة.

وحتى أن كبار مقلدي الإمام الشافعي، أفتوا بعدد من المسائل من مذهبه القديم، وقد خالفها في مذهبه الجديد.

ليالي النصف الأخير منه، ومن قال : هي في العشر الأواخر من الشهر قال : يلزمه قيام ليالي العشر كلها، وهو قول أصحابنا.[1] وإن كان نذره كذلك وقد مضى بعض ليالي العشر. فإن قلنا : إنها لا تنتقل في العشر، أجزأه في نذره أن يقوم ما بقي من ليالي العشر، ويقوم من عامٍ قابل من أول العشر الى وقت نذره.

وإن قلنا : إنها تنتقل في العشر، لم يخرج من نذره بدون قيام ليالي العشر كلها، بعد عام نذره. ولو نذر قيام ليلة غير معينة، لزمه قيام ليلة تامة، فإن قام نصف ليلة ثم نام، أجزأه أن يقوم من ليلة أخرى نصفها، قاله الأوزاعي، نقله عنه الوليد بن مسلم[2] في « كتاب النذور » وهو شبيه بقول من قال من أصحابنا وغيرهم : إن الكفارة يجزئ فيها أن يعتق نصفي رقبتين[3].

ومنها أن النبي ﷺ كان يوقظ أهله للصلاة في ليالي العشر دون غيره من الليالي.

وفي حديث أبي ذر ان النبي ﷺ لما قام بهم ليلة ثلاث وعشرين، وخمس وعشرين، وسبع وعشرين، ذكر انه دعا أهله ونساءه ليلة سبع وعشرين خاصة. وهذا يدل على انه يتأكد إيقاظهم في آكد الأوتار التي ترجى فيها ليلة القدر.

وخرج الطبراني من حديث علي أن النبي ﷺ كان يوقظ أهله في العشر الأواخر من رمضان، وكل صغير وكبير يطيق الصلاة.

قال سفيان الثوري : أحب إليّ اذا دخل العشر الأواخر أن يتهجد بالليل ويجتهد فيه، وينهض أهله وولده الى الصلاة إن أطاقوا ذلك.

وقد صحّ عن النبي ﷺ انه كان يطرق فاطمة وعلياً ليلاً فيقول لهما : « ألا تقومان فتصليان ».

وكان يوقظ عائشة بالليل إذا قضى تهجده وأراد أن يوتر. وورد الترغيب في إيقاظ أحد الزوجين صاحبه للصلاة، ونضح الماء في وجهه.

---

(١) أي أتباع المذهب الحنبلي.

(٢) هو أبو العباس الوليد بن مسلم الدمشقي الأموي بالولاء، من حفاظ الحديث، وكبار المؤلفين، توفي سنة ١٩٥ هـ.

(٣) لا يخفى ان الله رغّب في عتق العبيد، وهنا اشارة الى العتق الجزئي، كأن يكون في العبد شركاء أو يكون مكاتب، فيكون ثواب الأجزاء كثواب العتق الكامل.

وفي « الموطأ » أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يصلي في الليل ما شاء الله أن يصلي، حتى إذا كان نصف الليل أيقظ أهله للصلاة يقول لهم: الصلاة الصلاة، ويتلو هذه الآية: ﴿ وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها ﴾[1].

كانت امرأة حبيب أبي محمد تقول له بالليل: قد ذهب الليل، وبين أيدينا طريق بعيد، وزادنا قليل، وقوافل الصالحين قد سارت قدّامنا، ونحن قد بقينا.

يا نائم الليل كم ترقدُ قم يا حبيبي قد دنا الموعدُ
وخذ من الليل وأوقاته ورداً إذا ما هجع الرقدُ
من نام حتى ينقضي ليله لم يبلغ المنزل أو يجهد
قل لذوي الألباب أهل التقى قنطرة العَرض لكم موعدُ

ومنها: ان النبي ﷺ كان يشدّ المئزر. واختلفوا في تفسيره: فمنهم من قال: هو كناية عن شدة جدّه واجتهاده في العبادة. كما يقال: فلان يشدّ وسطه ويسعى في كذا، وهذا فيه نظر ؟ فإنها قالت: جدّ وشد المئزر، فعطفت شد المئزر على جدّه.

والصحيح أن المراد اعتزاله للنساء، وبذلك فسّره السلف والأئمّة المتقدمون، منهم سفيان الثوري، وقد ورد ذلك صريحاً من حديث عائشة وأنس، وورد تفسيره بأنه لم يأوِ الى فراشه حتى ينسلخ رمضان. وفي حديث أنس: وطوى فراشه واعتزل النساء، وقد كان النبي ﷺ غالباً يعتكف العشر الأواخر.

والمعتكف ممنوع من قربان النساء بالنصّ والإجماع[2]، وقد قالت طائفة من السلف في تفسير قوله تعالى: ﴿ فالآن باشروهن وابتغوا ما كتب الله لكم ﴾[3]. إنه طلب ليلة القدر. والمعنى في ذلك: ان الله تعالى لما أباح مباشرة النساء في ليالي الصيام إلى أن يتبيّن الخيط الأبيض من الخيط الأسود، أمر مع ذلك بطلب ليلة القدر، لئلا يشتغل المسلمون في طول ليالي الشهر بالاستمتاع المباح، فيفوتهم طلب ليلة القدر. فأمر مع ذلك بطلب ليلة القدر بالتهجد من الليل،

---

(١) سورة طه الآية ٣٢.

(٢) يلاحظ انه قدّم النص على الاجماع لأنه تبع له، وأما الذين يقدموا: القياس على النص والاجماع فقد قلبوا للنصوص ظهر المجن.

(٣) سورة البقرة الآية ١٨٧.

خصوصاً في الليالي المرجو فيها ليلة القدر، فمن هنا كان النبي ﷺ يصيب من أهله في العشرين من رمضان، ثم يعتزل نساءه ويتفرّغ لطلب ليلة القدر في العشر الأواخر.

ومنها : تأخيره الفطور إلى السحور. روي عنه من حديث عائشة وأنس أنه ﷺ كان في ليالي العشر يجعل عشاءه سحوراً. ولفظ حديث عائشة : كان رسول الله ﷺ إذا كان رمضان قام ونام، فإذا دخل العشر الأواخر، شد المئزر واجتنب النساء، واغتسل بين الأذانين، وجعل العشاء سحوراً. أخرجه ابن أبي عاصم وإسناده مقارب.

وحديث أنس خرجه الطبراني ولفظه : كان رسول الله ﷺ إذا دخل العشر الأواخر من رمضان طوى فراشه، واعتزل النساء، وجعل عشاءه سحوراً. وفي إسناده حفص بن واقد، قال ابن عدي : هذا الحديث من أنكر ما رأيت له.

وروي أيضاً نحوه من حديث جابر ؛ خرجه أبو بكر الخطيب، وفي إسناده من لا يعرف حاله.

وفي « الصحيحين » ما يشهد لهذه الروايات. ففيهما عن أبي هريرة قال : نهى رسول الله ﷺ عن الوصال في الصوم، فقال له رجل من المسلمين : إنك تواصل يا رسول الله ؟ فقال : « وأيكم مثلي، إني أبيت عند ربي يطعمني ويسقيني » فلما أبوا أن ينتهوا عن الوصال واصل بهم يوماً ثم يوماً، ثم رأوا الهلال، فقال : « لو تأخر لزدتكم » كالتنكيل لهم حين أبوا أن ينتهوا. فهذا يدل على أنه واصل بالناس في آخر الشهر.

وروى عاصم بن كليب عن أبيه عن أبي هريرة قال : ما واصل النبي ﷺ وصالكم قط، غير أنه قد أخّر الفطر إلى السحور. وإسناده لا بأس به.

وخرج الإمام أحمد من حديث علي رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان يواصل الى السحر. وخرجه الطبراني من حديث جابر أيضاً.

وخرج ابن جرير الطبري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان يواصل إلى السحر، ففعل ذلك بعض أصحابه، فنهاه، فقال : أنت تفعل ذلك : فقال : « إنكم لستم مثلي، إني أظل عند ربي يطعمني ويسقيني ».

وزعم ابن جرير أن النبي ﷺ لم يكن يواصل في صيامه إلّا إلى السحر

خاصة، وأن ذلك يجوز لمن قوي عليه، ويُكره لغيره، وأنكر أن يكون استدامة الصيام في الليل كله طاعة عند أحد من العلماء، وقال إنما كان يمسك بعضهم لمعنى آخر غير الصيام، إما ليكون أنشط له على العبادة، أو إيثاراً لطعامه على نفسه، أو لخوف مقلق منعه طعاماً، أو نحو ذلك.

فمقتضى كلامه : أن من واصل ولم يفطر ليكون أنشط له على العبادة، من غير أن يعتقد أن إمساك الليل قربة، أنه جائز. وإن أمسك تعبداً بالمواصلة، فان كان الى السحر وقوي عليه لم يكره، وإلا كره.

ولذلك قال أحمد وإسحاق : لا يكره الوصال الى السحر.

وفي « صحيح البخاري » عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال : « لا تواصلوا، فأيكم أراد أن يواصل فليواصل الى السحر، قالوا : فإنك تواصل يا رسول الله ؟ قال : « إني لست كهيئتكم، إني أبيت لي مُطعم يُطعمني، وساقٍ يسقيني ».

وظاهر هذا يدل على أنه ﷺ كان يواصل الليل كله، وقد يكون ﷺ إنما فعل ذلك لأنه رآه أنشط له على الاجتهاد في ليالي العشر، ولم يكن ذلك مضعفاً له عن العمل، فإن الله كان يطعمه ويسقيه.

واختلف في معنى إطعامه. فقيل : إنه كان يؤتى بطعام من الجنة يأكله.

وفي هذا نظر، فانه لو كان كذلك لم يكن مواصلاً، وقد أقرّهم على قولهم له : إنك تواصل.

لكن روى عبد الرزاق في كتابه [1] عن ابن جُريج : أخبرني عمرو بن دينار أن النبي ﷺ نهى عن الوصال، قالوا : فإنك تواصل ؟ قال : « وما يدريكم لعل ربي يطعمني ويسقيني ». وهذا مرسل.

وفي رواية لمسلم من حديث أنس : « إني أظل يطعمني ربي ويسقيني » وإنما يُقال : ظل يفعل كذا، اذا كان نهاراً، ولو كان أكلاً حقيقياً لكان منافياً للصيام.

والصحيح أنه اشارة الى ما كان الله يفتحه عليه في صيامه وخلوته بربه،

---

(١) أنظر «المصنف» لعبد الرزاق الصنعاني برقم ٧٧٥٦. طبع المكتب الاسلامي.

لمناجاته وذكره، من موارد أنسه، ونفحات قدسه، فكان يرد في ذلك على قلبه من المعارف الالهية، والمنح الربانية، ما يغذيه ويغنيه عن الطعام والشراب، كما قيل :

لها أحاديثُ مِنْ ذكراكَ تشغلها ... عن الطعام وتُلهيها عن الزادِ
لها بوجهكَ نور تستضيُ به ... وقت المسير وفي أعقابها حادي
إذا شكت من كلال السير أوعدها ... روح القدوم فتحيا عند ميعاد

الذكر قوت قلوب العارفين، يغنيهم عن الطعام والشراب، كما قيل :

أنتَ ربّي إذا ظمئت الى المـ ... ـاء وقوتي إذا أُردتُ الطعام

لما جاع المجتهدون شبعوا من طعام المناجاة، فأفّ لمن باع لذة المناجاة بفضل لقمة.

يا من لحشا المحب بالشوق حَشَا ... ذا سر سراك في الدجا كيف فشا
هذا المولى إلى المماليك مشى ... لا كان عيشاً أورث القلبِ غشا

ويتأكد تأخير الفطر في الليالي التى ترجى فيها ليلة القدر.

قال زر بن حبيش في ليلة سبع وعشرين : من استطاع منكم أن يؤخر فطره فليفعلِ، وليفطر على ضياح لبن. ورواه بعضهم عن زر عن أبي بن كعب مرفوعاً، ولا يصح. وضياح اللبن : وروي ضيح بالضاد المعجمة والياء آخر الحروف : هو اللبن الخاثر الممزوج بالماء.

وروى ابو الشيخ الأصبهاني بإسناده عن علي قال : إن وافق ليلة القدر وهو يأكل، أورثه داء لا يفارقه حتى يموت. وخرجه من طريقه أبو موسى المديني، وكأنه يريد إذا وافق دخولها أكله[1]. والله أعلم.

ومنها اغتساله بين العشاءين، وقد تقدّم من حديث عائشة، واغتسل بين الأذانين، والمراد : أذان المغرب والعشاء.

وروي من حديث علي أن النبي ﷺ كان يغتسل بين العشاءين كل ليلة : يعني من العشر الأواخر، وفي إسناده ضعف.

وروي عن حذيفة : أنه قام مع النبي ﷺ ليلة من رمضان، فاغتسل النبي

(١) وإسناد هذا الشيخ الاصبهاني لا يصح، ولا يقول سيدنا علي مثل هذا القول، ولا يصح رفعه ولا معناه، والله أعلم.

ﷺ وستره حُذيفة، وبقيت فضلة فاغتسل بها حذيفة، وستره النبي ﷺ خرجه ابن أبي عاصم.

وفي رواية أخرى، عن حذيفة قال: نام النبي ﷺ ذات ليلة من رمضان في حجرة من جريد النخل، فصب عليه دلواً من ماء.

وقال ابن جرير: كانوا يستحبون أن يغتسلوا كل ليلة من ليالي العشر الأواخر. وكان النخعي يغتسل في العشر كل ليلة. ومنهم من كان يغتسل ويتطيب في الليالي التي تكون أرجى لليلة القدر، فأمر زرّ بن حبيش بالاغتسال ليلة سبع وعشرين من رمضان.

وروي عن أنس بن مالك رضي الله عنه: أنه إذا كان ليلة أربع وعشرين اغتسل وتطيب ولبس حلة: إزاراً، ورداء، فإذا أصبح طواهما، فلم يلبسهما إلى مثلها من قابل.

وكان أيوب السختياني يغتسل ليلة ثلاث وعشرين، وأربع وعشرين، ويلبس ثوبين جديدين ويستجمر، ويقول: ليلة ثلاث وعشرين، هي ليلة أهل المدينة، والتي تليها ليلتنا، يعني البصريين.

وقال حماد بن سلمة: كان ثابت البناني، وحميد الطويل يلبسان أحسن ثيابهما ويتطيبان، ويطيبون المسجد بالنضوح والدخنة في الليلة التي ترجى فيها ليلة القدر. وقال ثابت: كان لتميم الداري حلة اشتراها بألف درهم، وكان يلبسها في الليالي التي ترجى فيها ليلة القدر.

فتبين بهذا أنه يستحبّ في الليالي التي ترجى فيها ليلة القدر التنظّف والتزيّن والتطيّب، بالغسل والطيب، واللباس الحسن، كما يشرع ذلك في الجمع والأعياد. وكذلك يشرع أخذ الزينة بالثياب في سائر الصلوات، كما قال تعالى: ﴿ خذوا زينتكم عند كل مسجد ﴾[1].

وقال ابن عمر: الله أحقّ أن يُتزين له. وروي عنه مرفوعاً: « لا يكمل التزين الظاهر إلّا بتزيّن الباطن بالتوبة والإنابة الى الله تعالى، وتطهيره من أدناس الذنوب وأوضارها، فإن زينة الظاهر مع خراب الباطن لا تغني شيئاً ».

قال الله تعالى: ﴿ يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباساً يواري سوآتكم

(١) سورة الأعراف الآية ٢٦.

وريشاً ولباس التقوى ذلك خير ﴾[١].

إذا المرء لم يلبس ثياباً من التقى تقلب عرياناً وإن كان كاسياً

لا يصلح لمناجاة الملوك في الخلوات، إلّا من زين ظاهره وباطنه وطهرهما، خصوصاً لملك الملوك، الذي يعلم السرّ وأخفى. وهو لا ينظر الى صوركم، وإنما ينظر الى قلوبكم وأعمالكم، فمن وقف بين يديه، فليزين له ظاهره باللباس، وباطنه بلباس التقوى.

أنشد الشبلي :

قالوا غداً العيد ماذا أنت لابسه فقلتُ خلعة ساق حبه جرعا
فقر وصبر هما ثوبان تحتهما قلب يرى إلفة الأعياد والجمعا
أحرى الملابس أن تلقى الحبيب به يوم التزاور في الثوب الذي خَلعا
الدهرُ لي مأتم إن غبتَ يا أملي والعيد ما كنت لي مرأىً ومستمعا

ومنها الاعتكاف. ففي « الصحيحين » عن عائشة رضي الله عنها : أن النبي ﷺ كان يعتكف العشر الأواخر من رمضان حتى توفاه الله تعالى.

وفي « صحيح البخاري » عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ يعتكف في كل رمضان عشرة أيام، فلما كان العام الذي قبض فيه اعتكف عشرين.

وإنما كان يعتكف النبي ﷺ في هذه العشر التي كان يطلب فيها ليلة القدر، قطعاً لاشتغاله، وتفريغاً لباله، وتخلياً لمناجاة ربه، وذكره ودعائه. وكان يحتجر حصيراً يتخلى فيها عن الناس، فلا يخالطهم. ولا يشتغل بهم.

ولهذا ذهب الإمام أحمد الى المعتكف لا يستحب له مخالطة الناس، حتى ولا لتعليم علم وإقراء قرآن، بل الأفضل له الانفراد بنفسه، والتخلّي بمناجاة ربه، وذكره ودعائه.

وهذا الاعتكاف هو الخلوة الشرعية. وإنما تكون في المساجد، لئلا يترك به الجمع والجماعات، فإن الخلوة القاطعة عن الجمع والجماعات منهي عنها[٢].

---

(١) سورة الأعراف الآية ٢٦.

(٢) اشارة فيه الى ان الخلوة المعروفة عند الصوفية ليست شرعية. بل في بعضها من الضلالات ما قد يخرج من الملة عند الاصرار عليه.

سئل ابن عباس عن رجل يصوم النهار ويقوم الليل ولا يشهد الجمعة والجماعات. قال : هو في النار.

فالخلوة المشروعة لهذه الأمة هي الاعتكاف في المساجد. خصوصاً في شهر رمضان. خصوصاً في العشر الأواخر منه. كما كان النبي ﷺ يفعله.

فالمعتكف قد حبس نفسه على طاعة الله وذكره، وقطع عن نفسه كل شاغل يشغله عنه، وعكف بقلبه وقالبه على ربه وما يقربه منه، فما بقي له هم سوى الله، وما يرضيه عنه. كما كان داود الطائي يقول في ليله : همّك عطّل عليّ الهموم، وخالف بيني وبين السهاد، وشوقي الى النظر اليك أوثق مني اللذات، وحال بيني وبين الشهوات :

ما لي شغل سواه ما لي شغل ما يصرف عن قلبي هواه عذل
ما أصنع إن جفا وخاب الأمل مني بدل ومنه ما لي بدل

فمعنى الاعتكاف وحقيقته : قطع العلائق عن الخلائق، للاتصال بخدمة الخالق، وكلما قويت المعرفة بالله والمحبة له، والأنس به، أورثت صاحبها الانقطاع الى الله تعالى بالكلية، على كل حال. كان بعضهم لا يزال منفرداً في بيته، خالياً بربه. فقيل له : أما تستوحش. قال. كيف أستوحش وهو يقول : « أنا جليس من ذكرني »[1].

أوحشتني خلواتي بكَ مِنْ كلِّ أنيسِ
وتفردت فعاينتك بالغيب جليسي

يا ليلة القدر للناس اشهدي ويا أقدام القانتين اركعي لربك واسجدي. يا ألسنة السائلين جدي في المسألة واجتهدي.

يا رجالَ الليل جدوا رُب داع لا يردُّ
ما يقوم الليل إلّا من له عزم وجِدُّ

ليلة القدر عند المحبين ليلة الخلوة بأنس مولاهم وقربه. وإنما يفرون من ليالي البعد والهجر.

---

(١) رواه البيهقي في «شعب الايمان» عن أبي بن كعب قال : قال موسى عليه السلام : يا رب أقريب أنت فأناجيك أو بعيد فأناديك. فقال له : يا موسى، «أنا جليس من ذكرني. . .».

كان ببغداد موضعان، يقال لأحدهما : دار الملك. وللأخرى : القطيعة فجاز بعض العارفين بملّاح في سفينة. فقال له : احملني معك الى دار الملك. فقال له الملاح : ما أقصد إلّا دار القطيعة. فصاح العارف : لا بالله. لا بالله. منها أفر.

وليلـــة بتُّ فـــي أكنافهـــا تعدل عنـدي ليلـــة القـــدر
كـانت سلاماً لسـروري بهـــا بالوصـل حتـى مطلـع الفجـر

يا من ضاع عمره في لا شيء، استدرك ما فاتك في ليلة القدر، فإنها تحسب بالعمر.

وليلـة وصـل بـاتِ منجز وعـده سميريَ فيهـا بعـد طـول مطـالِ
شفيتُ بهـا قلبـاً أطيـل غليلـه زمانـا فكانـــت ليلـــة بليـــال

إخواني ؛ المعوَّل على القبول لا على الاجتهاد، والاعتبار ببرّ القلوب لا بعمل الأبدان. « رب قائم حظه من قيامه السهر »[1]. كم من قائم محروم، وكم من نائم مرحوم، هذا نام وقلبه ذاكر، وهذا قام وقلبه فاجر.

إن المقاديـــر إذا ساعـــدت ألحقـــت النائـــمَ بالقائـــم

لكن العبد مأمور بالسعي في اكتساب الخيرات والاجتهاد في الأعمال الصالحات. « وكل ميسر لما خلق له »[2]. « أما أهل السعادة فييسرون لعمل أهل السعادة. وأما أهل الشقاوة فييسرون لعمل أهل الشقاوة ﴿ فأما من أعطى وأتقى. وصدق بالحسنى. فسنيسره لليسرى. وأما من بخل واستغنى. وكذب بالحسنى. فسنيسره للعسرى ﴾[3].

فالمبادرة المبادرة إلى اغتنام العمل فيما بقي من الشهر. فعسى أن يستدرك به ما فات من ضياع العمر.

تولـــى العمـــر في سهـــو وفـي لهـــو وفـي خســـرِ
فيـــا ضيعـــة مـــا أنفقـــت في الأيـام مـن عمـري

---

(١) وهو حديث حسن رواه البيهقي.
(٢) رواه البخاري عن علي ابن أبي طالب رضي الله عنه.
(٣) سورة الليل الآيات ٥ ـ ١٠. رواه البخاري عن علي ابن أبي طالب رضي الله عنه.

ومالـــي فـــيِ الـــذي ضيعـــ ـــتُ من عمريَ من عُـذر
فمـــا أغفَلَنـــا عـــن وا جبـات الحمـــدِ والشكـــرِ
أمـــا قـــد خصنـــا الله بشهـــر أيمـــا شهـــر
بشهـــر أُنـــزل الرحمـــ ـــن فيـــه أشـــرف الذِكـــر
وهـــل يشبهـــه شهـــر وفيـــه ليلـــةُ القـــدرِ
فكـــم من خبـــر صـــحَّ بمـــا فيهـــا مـــن الخيـــر
روينـــا عـــن ثقـــات أنـــ ـــهـا تُطلـــبُ فـــي الوتـــر
فطوبـــى لامـــرىءٍ يطلُـــ ـــبُها فـــي هـــذه العشـــر
ففيهـــا تنـــزل الأمـــلا ك بالأنـــوار والبـــر
فقـــد قـــال : ﴿سلام هي حتى مطلع الفجر﴾
ألا فـادَّخروهـــا إنـــ ـــهـا من أنفـس الذخـر
فكـــم مـــن معتـــق فيهـــا مـــن النـــار ولا يـــدري

المجلس الخامس
في ذكر السبع الأواخر من رمضان

في « الصحيحين » عن ابن عمر رضي الله عنهما : أن رجالاً من أصحاب النبي ﷺ أروا ليلة القدر في المنام في السبع الأواخر. فقال رسول الله ﷺ : « أرى رؤياكم قد تواطأت في السبع الأواخر، فمن كان متحرِّيها فليتحرّها في السبع الأواخر ».

وفي « صحيح مسلم » عنه عن النبي ﷺ قال : « التمسوها في العشر الأواخر، فإن ضعف أحدكم أو عجز فلا يُغلبن على السبع البواقي ».

قد ذكرنا فيما تقدم أن النبي ﷺ كان يجتهد في شهر رمضان على طلب ليلة القدر، وأنه اعتكف مرة العشر الأوائل منه. ثم طلبها فاعتكف بعد ذلك العشر الأواخر في طلبها. وأمر بطلبها فيه.

ففي « الصحيحين » عن عائشة ان النبي ﷺ قال : « تحروا ليلة القدر في العشر الأواخر من رمضان ». وفي رواية للبخاري « في الوتر من العشر الأواخر من رمضان ». وله من حديث ابن عباس عن النبي ﷺ قال : « التمسوها في العشر الأواخر من رمضان ». ولمسلم من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « التمسوها في العشر الغوابر ».

والأحاديث في هذا المعنى كثيرة.

وكان يأمر بالتماسها في أوتار العشر الأواخر من رمضان ففي « صحيح البخاري » عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال : « التمسوا ليلة القدر في العشر الأواخر من رمضان ؛ في تاسعه تبقى ؛ في سابعه تبقى ؛ في خامسه تبقى ». وفي رواية له « هي في العشر في تسع يمضين أو سبع يبقين ».

وخرج الامام أحمد، والنسائي ؛ والترمذي من حديث أبي بكرة قال : ما أنا

بملتمسها لشيء سمعته من رسول الله ﷺ إلّا في العشر الأواخر، فإني سمعته يقول : « التمسوها في تسع يبقين ؛ أو سبع يبقين، أو خمس يبقين، أو ثلاث يبقين ؛ أو آخر ليلة ».

وكان أبو بكرة يصلي في العشرين من رمضان كصلاته في سائر السنة، فإذا دخل العشر الأواخر اجتهد ؛ ثم بعد ذلك أمر بطلبها في السبع الأواخر.

وفي « المسند » وكتاب النسائي عن أبي ذر قال : كنت أسأل الناس عنها، يعني ليلة القدر ؛ فقلت : يا رسول الله أخبرني عن ليلة القدر ؛ أفي رمضان هي أو في غيره ؟ قال : « بلى، هي في رمضان » ؛ قلت : تكون مع الأنبياء ما كانوا، فإذا قبضوا رفعت ؛ أم هي الى يوم القيامة ؟ قال : « بل هي الى يوم القيامة ». قلت : في أي رمضان هي ؟ قال : « التمسوها في العشر الأول، والعشر الأواخر » قلت : في أي العشرين هي ؟ قال : « في العشر الأواخر ؛ لا تسألني عن شيء بعدها » ، ثم حدث رسول الله ثم اهتبلتُ غفلته فقلت : يا رسول الله، أقسمت عليك بحقي لما أخبرتني في أي العشر هي ؟ فغضب عليّ غضباً لم يغضب مثله منذ صحبته، وقال : « التمسوها في السبع الأواخر ؛ لا تسألني عن شيء بعدها ».

وخرجه ابن حبان في « صحيحه » والحاكم. وفي رواية لهما : أنه قال له ألم أنهك أن تسألني عنها ؟ إن الله لو أذن لي أن أخبركم بها لأخبرتكم، لا آمن أن تكون في السبع الأواخر ». ففي هذه الرواية أن بيان النبي ﷺ لليلة القدر انتهى الى أنها في السبع الأواخر ؛ ولم يزد على ذلك شيئاً.

وقد اختلف الناس في ليلة القدر اختلافاً كثيراً، فحكي عن بعضهم أنها رفعت؛ وحديث أبي ذر يرد ذلك. وروي عن محمد ابن الحنفية [1]: أنها في كل سبع سنين مرة ؛ وفي إسناده ضعف ؛ وعن بعضهم أنها في كل سنة ؛ حكي عن ابن مسعود وطائفة من الكوفيين، وروي عن أبي حنيفة.

وقال الجمهور : في رمضان كل سنة ؛ ثم منهم من قال : هي في الشهر

---

(١) هو ابن علي ابن أبي طالب، وعُرف بالنسبة الى أمه خولة بنت جعفر من بني حنيفة، وكان واسع العلم، وكان يقول : « الحسن والحسين أفضل مني وأنا أعلم منهما »، وأخباره في الشجاعة والورع كثيرة، وبعض الشيعة الغالية، كانت تزعم أنه المهدي وأنه لم يمت، كانت وفاته سنة ٨١هـ.

كله ؛ وحكي عن بعض المتقدمين : أنها أول ليلة منه. وقالت طائفة : هي في النصف الثاني منه، وقد حكي عن أبي يوسف ومحمد، وقد تقدم قول من قال : إنها ليلة بدر على اختلافهم : هي ليلة سبع عشرة، أو تسع عشرة.

وقال الجمهور : هي منحصرة في العشر الأواخر.

واختلفوا في أي ليال العشر أرجى. فحكي عن الحسن ومالك : أنها تطلب في جميع ليالي العشر ؛ أشفاعه وأوتاره ؛ ورجحه بعض أصحابنا، وقال : لأن قول النبي ﷺ : « التمسوها في تاسعة تبقى ؛ أو سابعة تبقى ؛ أو خامسة تبقى » ؛ إن حملناه على تقدير كمال الشهر كانت أشفاعاً، وإن حملناه على ما بقي منه حقيقة، كان الأمر موقوفاً على كمال الشهر ؛ فلا يعلم قبله ؛ فإن كان تاماً، كانت الليالي المأمور بطلبها أشفاعاً ؛ وإن كان ناقصاً كانت أوتاراً ؛ فيوجب ذلك الاجتهاد في القيام في كلا الليلتين : الشفع منها والوتر.

وقال الأكثرون : بل بعض لياليه أرجى من بعض ؛ وقالوا : الأوتار أرجى في الجملة ؛ ثم اختلفوا في أي أوتاره أرجى ؟ فمنهم من قال : ليلة إحدى وعشرين ؛ وهو المشهور عن الشافعي ؛ لحديث أبي سعيد الخدري ؛ وقد ذكرناه فيما سبق ؛ وحكي عنه[1] أنها تطلب ليلة إحدى وعشرين ؛ وثلاث وعشرين ؛ قال في القديم : كأني رأيت ـــ والله أعلم ـــ أقوى الأحاديث فيه ليلة إحدى وعشرين ؛ وليلة ثلاث وعشرين ؛ وهي التي مات فيها علي ابن أبي طالب رضي الله عنه ؛ وقد جاء في ليلة سبع عشرة ؛ وليلة أربع وعشرين وليلة سبع وعشرين : انتهى.

روى ابن عبد البر بإسناد صحيح من طريق سعيد بن جبير قال : كان ناس من المهاجرين وجدوا[2] على عمر في إدنائه ابن عباس، فجمعهم ثم سألهم عن ليلة القدر، فأكثروا فيها، فقال بعضهم : كنا نراها في العشر الأوسط، ثم بلغنا أنها في العشر الأواخر، فأكثروا فيها، فقال بعضهم : ليلة إحدى وعشرين، وقال بعضهم : ليلة ثلاث وعشرين، وقال بعضهم : ليلة سبع وعشرين، فقال عمر رضي الله عنه : يا ابن عباس تكلّم، فقال : الله أعلم، قال عمر : قد نعلم أن

---

(١) أي الشافعي.

(٢) أي غضبوا.

الله يعلم، وإنما نسألك عن علمك، فقال ابن عباس رضي الله عنهما : إن الله وتر يحب الوتر، خلق من خلقه سبع سماوات، فاستوى عليهن، وخلق الأرض سبعاً، وجعل عدة الأيام سبعاً، ورمي الجمار سبعاً، وخلق الانسان من سبع، وجعل رزقه من سبع.

فقال عمر : خلق الانسان من سبع، وجعل رزقه من سبع ! هذا أمر ما فهمته ؟ فقال : إن الله تعالى يقول : ﴿ ولقد خلقنا الانسان من سلالةٍ من طين ﴾ .[1] حتى بلغ آخر الآيات[2] وقرأ ﴿ أنا صببنا الماء صبّاً. ثم شققنا الأرض شقاً. فأنبتنا فيها حباً وعنباً وقضباً. وزيتوناً ونخلاً. وحدائق غلباً. وفاكهة وأبا. متاعاً لكم ولانعامكم ﴾ [3].

ثم قال : والأب للدواب. وخرجه ابن سعد في « طبقاته » عن إسحاق الأزرق، عن عبد الملك بن أبي سليمان، عن سعيد بن جبير، فذكره بمعناه، وزاد في آخره قال : وأما ليلة القدر فما نراها إن شاءالله إلّا ليلة ثلاث وعشرين يمضين، أو سبع يبقين.

وقد صحّ عن ابن عباس أنه كان ينضح على أهله الماء ليلة ثلاث وعشرين. خرجه عبد الرزاق، وخرجه ابن أبي عاصم مرفوعاً، والموقوف أصح.

وقد استنبط طائفة من المتأخرين من القرآن أنها ليلة سبع وعشرين من موضعين : أحدهما : أن الله تعالى كرّر ذكر ليلة القدر في سورة القدر في ثلاثة مواضع منها، وليلة القدر حروفها تسع، والتسع إذا ضربت في ثلاثة فهي سبع وعشرون.

والثاني : أنه قال : (سلام هي) فكلمة هي، هي الكلمة السابعة والعشرون من السورة، فإن كلماتها كلها ثلاثون، قال ابن عطية : هذا من مُلح التفسير، لا من متن العلم. وهو كما قال: . . . ثم قال المؤلف بعد أن ذكر أشياء لا تصح:

---

(١) سورة المؤمنون الآية ١٢.

(٢) وهي: ﴿ ثم جعلناه نطفة في قرار مكين. ثم خلقنا النطفة علقة، فخلقنا العلقة مضغة، فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحماً ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك أحسن الخالقين. ثم إنكم بعد ذلك لميتون. ثم إنكم يوم القيامة تبعثون ﴾ سورة المؤمنون الآيات ١٣ ـ ١٥.

(٣) سورة عبس الآيات ٢٥ ـ ٣٢.

واعلم أن جميع هذه العلامات، لا توجب القطع بليلة القدر[١].

قال الله تعالى: ﴿ إنا أنزلناه في ليلة القدر. وما أدراك ما ليلة القدر. ليلة القدر خير من ألف شهر ﴾[٢].

واختلف في ليلة القدر. والحكمة في نزول الملائكة في هذه الليلة: أن الملوك والسادات لا يحبون أن يدخل دارهم أحد حتى يزينوا دارهم بالفرش والبسط ويزينوا عبيدهم بالثياب والأسلحة، فإذا كانت ليلة القدر أمر الرب تبارك وتعالى الملائكة بالنزول الى الأرض، لأن العباد زينوا أنفسهم بالطاعات: بالصوم والصلاة في ليالي رمضان، ومساجدهم بالقناديل والمصابيح؛ فيقول الرب تعالى: « أنتم طعنتم في بني آدم » وقلتم: ﴿ أتجعل فيها من يفسد فيها ﴾[٣]. فقلت لكم: ﴿ إني أعلم ما لا تعلمون ﴾. اذهبوا اليهم في هذه الليلة، حتى تروهم قائمين؛ ساجدين، راكعين، لتعلموا اني اخترتهم على علم على العالمين.

قال مالك: بلغني ان رسول الله ﷺ أُرى أعمار الناس قبله، أو ما شاءالله من ذلك، فكأنه تقاصر أعمار أمته أن لا يبلغوا من العمل الذي بلغه غيرهم في طول العمر، فأعطاه الله ليلة القدر خير من ألف شهر[٤].

---

(١) ان معرفة الحق من طريق الألفاظ والمعميّات، وحساب الجُمَّل، واستخدام الأعداد والأرقام، وفتح المصحف كما اتفق، وعد بعض السطور منه، والاستئناس ببعض الكلمات، والاستيحاش من غيرها، واستعمال ورق اللعب، وعد بتلات الزهرات والورود، الى آخر ما أوحى الشيطان من ذلك، كلها من باب التنجيم والطيرة، التي نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم. بل ان بعضها قد يصل الى درجة الكفر عند من يعتقدها، والبعض الآخر يدل على سخافة من يؤمن بها.
بل شهدنا في عصرنا من استفاد، من الحاسب الآلي (الكمبيوتر) واستخرج من القرآن الكريم أعداداً ومكررات، زعم في النهاية أنها تدل على أشياء وأشياء، وأحد هؤلاء زعم أنه المهدي، وأنه المسيح الموعود عند اليهود، وأنه من سلالة هارون، وأنه اسحاق الذبيح؟ والكثير من هذه الخزعبلات وظهر من كلامه أنه يقصد بها افساد عقيدة هذه الأمة، والطعن في دين الله بهذه المعميات.

(٢) سورة القدر الآيات ١ ـ ٣.

(٣) سورة البقرة الآية ٣٠ وتمامها ﴿ وإن قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إني أعلم ما لا تعلمون ﴾.

(٤) هذا من بلاغات مالك في « الموطأ » التي لم يسندها، وانظر « شرح الموطأ » للزرقاني.

وروي عن مجاهد: أن النبي ﷺ ذكر رجلاً من بني اسرائيل لبس السلاح ألف شهر فعجب المسلمون من ذلك، فأنزل الله هذه السورة ﴿ ليلة القدر خير من ألف شهر ﴾ الذي لبس فيها ذلك الرجل السلاح في سبيل الله ألف شهر.

وقال النخعي: العمل فيها خير من العمل في ألف شهر.

وفي « الصحيحين » عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: « من قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه ».

وفي « المسند » عن عُبادة بن الصامت رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: « من قامها ابتغاءها. ثم وقعت له، غفر له بما تقدم من ذنبه وما تأخر ».

وفي « المسند » والنسائي عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال في شهر رمضان: « فيه ليلة خير من ألف شهر، مَنْ حُرم خيرها فقد حرم »[1].

قال جويبر:[2] قلت للضحاك: أرأيت النفساء والحائض والمسافر والنائم، ألهم في ليلة القدر نصيب ؟

قال: نعم. كل من تقبل الله عمله سيعطيه نصيبه من ليلة القدر.

وأمّا العمل في ليلة القدر، فقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: « من قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً غُفر له ما تقدم من ذنبه ». وقيامها إنما هو إحياؤها بالتهجد فيها، والصلاة، وقد أمر عائشة بالدعاء فيها أيضاً. قال سفيان الثوري: الدعاء في تلك الليلة أحب اليّ من الصلاة، قال: وإذا كان يقرأ وهو يدعو ويرغب الى الله في الدعاء والمسألة، لعله يوافق. انتهى.

ومراده أن كثرة الدعاء أفضل من الصلاة التي لا يكثر فيها الدعاء، وإن قرأ ودعا كان حسناً. وقد كان النبي ﷺ يتهجد في ليالي رمضان، ويقرأ قراءة مرتلة، لا يمر بآية فيها رحمة إلا سأل، ولا بآية فيها عذاب الا تعوذ، فيجمع بين الصلاة والقراءة والدعاء والتفكّر، وهذا أفضل الأعمال وأكملها في ليالي العشر وغيرها والله أعلم. وقد قال الشعبي في ليلة القدر: ليلها كنهارها. وقال

---

(١) وهو حسن لغيره.

(٢) هو جويبر بن سعيد الأزدي البلخي الكوفي، من رواة التفسير وضعيف الحديث، مات بعد ١٤٠هـ. وقيل ان اسمه جابر وصغر.

الشافعي في القديم : أستحب أن يكون اجتهاده في نهارها كاجتهاده في ليلها.

وهذا يقتضي استحباب الاجتهاد في جميع زمان العشر الأواخر ليله ونهاره، والله أعلم.

المحبون تطول عليهم الليالي فيعدونها عد الانتظار لليالي العشر في كل عام، فإذا ظفروا بها نالوا مطلوبهم، وخدموا محبوبهم.

قد مزقَ الحبُّ قميص الصبر   وقد غدوتُ حائراً في أمري
آه على تلك الليالي الغرّ   ما كنّ إلّا كليالي القدر
إن عدنَ لي من بعد هذا الهجر   وفّيت لله بكل نذر
وقام بالحمد خطيبُ شكري

رياح هذه الأسحار، تحمل أنين المذنبين، وأنفاس المحبين، وقصص التائبين، ثم تعود برد الجواب، بلا كتاب.

أعلمتموا أن النسيم إذا سرى   حمل الحديث إلى الحبيب كما جرى
جهل العذول بأنني في حبهم   سهرُ الدجى عندي ألذّ من الكرى

فإذا ورد بريد برد السحر، يحمل ملطفات الألطاف، لم يفهمها غير من كتب اليه.

نسيم صبا نجد متى جئتَ حاملا   تحيتَهم فاطوِ الحديث عن الركب
ولا تذع السر المصون فإنني   أغارُ على ذكر الأحبة من صحبي

يا يعقوب الهجر، قد هبت ريح يوسف الوصل، فلو استنشقت لعدت بعد العمى بصيراً، ولوجدت ما كنت لفقده فقيراً.

كان لي قَلب أعيشُ به   ضاع مني في تقلُّبه
رِب فاردده عليَّ فقد   عِيل صبري في تقلُّبه
وأغثني ما دام بي رمق   يا غياث المستغيث به

لو قام المذنبون في هذه الأسحار، على أقدام الانكسار، ورفعوا قصص[1] الاعتذار، مضمونها : ﴿ يا أيها العزيز مسنا وأهلنا الضر وجئنا ببضاعة مزجاة

(١) هي البطاقات التي تذكر فيها الأعمال، وكان هذا اللفظ يراد به « الاستدعاءات ».

فأوف لنا الكيل وتصدق علينا ﴾ [1] لبرز لهم التوقيع عليها : ﴿ لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين ﴾ [2].

أشكو إلى الله كما قد شكى أولاد يعقوب إلى يوسف
قد مسّني الضر وأنتَ الذي تعلم حالي وترى موقفي
بضاعتي المزجاة محتاجة إلى سماح من كريم وفي
فقد أتى المسكين مستمطراً جودك فارحم ذله واعطف
فأوف كيلي وتصدق على هذا المقلّ البائس الأضعف

قالت عائشة رضي الله عنها للنبي ﷺ : أرأيت إن وافقتُ ليلة القدر ما أقول فيها ؟ قال : « قولي : اللهم إنك عفو تحب العفو فاعف عني ».

العفو : من أسماء الله تعالى، وهو المتجاوز عن سيئات عباده، الماحي لآثارها عنهم، وهو يحب العفو، فيحب أن يعفو عن عباده، ويحب من عباده أن يعفو بعضهم عن بعض، فإذا عفا بعضهم عن بعض عاملهم بعفوه، وعفوه أحب اليه من عقوبته.

وكان النبي ﷺ يقول : « أعوذ برضاك من سخطك، وبعفوك من عقوبتك » قال يحيى بن معاذ : لو لم يكن العفو أحب الأشياء اليه لم يبتل بالذنب أكرم الناس عليه، يشير أنه ابتلى كثيراً من أوليائه وأحبّائه بشيء من الذنوب ليعاملهم بالعفو، فإنه يحب العفو. قال بعض السلف الصالحين : لو علمت أحب الأعمال الى الله تعالى لأجهدت نفسي فيه، فرأى قائلاً يقول له في منامه : إنك تريد ما لا يكون، إن الله يحب أن يعفو ويغفر، وإنما أحب أن يعفو ليكون العباد كلهم تحت عفوه، ولا يدل عليه أحد منهم بعمل، وقد جاء في حديث ابن عباس مرفوعاً : « إن الله ينظر ليلة القدر الى المؤمنين من أمة محمد ﷺ ، فيعفو عنهم ويرحمهم، إلا أربعة : مدمن خمر، وعاقاً، ومشاحناً، وقاطع رحم ».

لما عرف العارفون جلاله خضعوا، ولما سمع المذنبون بعفوه طمعوا، ما ثَمَّ إلّا عفو الله أو النار، لولا طمع المذنبين في العفو لاحترقت قلوبهم باليأس من

---

(١) سورة يوسف الآية ٨٨.
(٢) سورة يوسف الآية ٩٢.

الرحمة، ولكن إذا ذكرت عفو الله استروحت إلى برد عفوه.

كان بعض المتقدمين يقول في دعائه : اللهم إن ذنوبي قد عظمت، فجلّت عن الصفة، وإنها صغيرة في جنب عفوك، فاعف عني. وقال آخر منهم : جرمي عظيم، وعفوك كثير، فاجمع بين جرمي وعفوك يا كريم. يا كبير الذنب عفو الله من ذنبك أكبر، وأكبر الأوزار في جنب عفو الله يصغر، وإنما أمر بسؤال العفو في ليلة القدر بعد الاجتهاد في الأعمال فيها، وفي ليالي العشر، لأن العارفين يجتهدون في الأعمال، ثم لا يرون لأنفسهم عملاً صالحاً، ولا حالاً ولا مقالاً، فيرجعون إلى سؤال العفو، كحال المذنبين المقصرين.

قال يحيى بن معاذ : ليس بعارف من لم يكن غاية أمله من الله العفو.

إنْ كنتُ لا أصلحُ للقربِ فشأنكم العفو عن الذنبِ

كان مُطرِّف[1] يقول في دعائه : اللهم ارض عنّا، فإن لم ترض عنا فاعف عنا. من عظمت ذنوبه في نفسه، لم يطمع في الرضى، وكان غاية أمله أن يطمع في العفو، ومن كملت معرفته لم ير نفسه إلا في هذه المنزلة.

يا رب عبدك قد أتاك وقد أساء وقد هفا
يكفيه منك حياؤه من سوء ما قد أسلفا
حمل الذنوب على الذنوب الموبقات وأسرفا
وقد استجار بذيل عفوك من عقابك مُلحفا
يا رب فاعف وعافه فلأنت أولى من عفا

(١) هو مُطرّف بن عبدالله بن الشخير العامري، تابعي كبير ولد في حياة النبي ﷺ، له كلمات بليغات مشهورات في الحكمة والآداب، كانت وفاته في البصرة في خلافة الحجاج بن يوسف قريب سنة ٩٠هـ.

المجلس السادس

في وداع رمضان

في « الصحيحين » من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال :

« من صام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه، ومن قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه ».

وفيهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أيضاً عن النبي ﷺ قال :

« من قام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه »

وللنسائي في رواية : « من صام رمضان ايماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ».

وقد سبق في قيام ليلة القدر مثل ذلك من رواية عُبادة بن الصامت، والتكفير بصيامه قد ورد مشروطاً بالتحفظ مما ينبغي أن يتحفظ منه.

ففي « المسند » و « صحيح ابن حبان » عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم :

« من صام رمضان فعرف حدوده وتحفظ مما ينبغي له أن يتحفظ منه كفر ذلك ما قبله ».

والجمهور على أن ذلك إنما يكفر الصغائر.

ويدل عليه ما خرجه مسلم من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « الصلوات الخمس، والجمعة الى الجمعة، ورمضان الى رمضان، مكفّرات لما بينهن ما اجتنبت الكبائر ».

وفي تأويله قولان :

أحدهما : أن تكفير هذه الأعمال مشروط باجتناب الكبائر، فمن لم يجتنب الكبائر لم تكفّر له هذه الأعمال كبيرة ولا صغيرة.

الثاني : أن المراد أن هذه الفرائض تكفّر الصغائر خاصة بكل حال، وسواء اجتنبت الكبائر أو لم تجتنب، وأنها لا تكفر الكبائر بحال. وقد قال ابن المنذر في « قيام ليلة القدر » : إنه يرجى به مغفرة الذنوب كبائرها وصغائرها. وقال غيره مثل ذلك في الصوم أيضاً. والجمهور على أن الكبائر لا بدّ لها من توبة نصوح.

وهذه المسائل قد ذكرناها مستوفاة في مواضع أخر، فدل حديث أبي هريرة رضي الله عنه على أن هذه الأسباب الثلاثة كل واحد منها مكفِّر لما سلف من الذنوب، وهي : صيام رمضان وقيامه، فقيام ليلة القدر بمجرده يكفر الذنوب لمن وقعت له، كما في حديث عُبادة بن الصامت وقد سبق ذكره. وسواء كانت في أول الشهر أو أوسطه أو آخره، وسواء شعر بها أو لم يشعر، ولا يتأخر تكفير الذنوب بها الى انقضاء الشهر.

وأمّا صيام رمضان وقيامه، فيتوقف التكفير بهما على تمام الشهر، فإذا تم الشهر فقد كمل للمؤمن صيام رمضان وقيامه، فيترتّب له على ذلك مغفرة ما تقدم من ذنبه بتمام السببين، وهما صيامه وقيامه، وقد يقال : إنه يغفر لهم عند استكمال القيام في آخر ليلة من رمضان بقيام رمضان قبل تمام نهارها، وتتأخر المغفرة بالصيام الى اكمال النهار بالصوم، فيغفر لهم بالصوم وفي ليلة الفطر.

ويدل على ذلك ما خرجه الإمام أحمد من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « أُعطيت أُمتي خمس خصال في رمضان لم تعطها أمة غيرهم : خلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك، وتستغفر لهم الملائكة حتى يفطروا، ويزين الله كل يوم جنته ويقول : يوشك عبادي أن يكفوا عنهم المؤنة والأذى ويصيروا اليك، وتصفد فيه مردة الشياطين فلا يخلصون فيه الى ما كانوا يخلصون اليه في غيره، ويغفر لهم في آخر ليلة فيه. فقيل : يا رسول الله أهي ليلة القدر ؟ قال : « لا ولكن العامل إنما يوفى أجره إذا قضى عمله ».

وقد روي : ان الصائمين يرجعون يوم الفطر مغفوراً لهم، وان يوم الفطر يسمى يوم الجوائز، وفيه أحاديث ضعيفة. وقال الزهري : اذا كان يوم الفطر

وخرج الناس الى الجبار، اطلع الله عليهم، فقال : يا عبادي لي صمتم، ولي قمتم، ارجعوا مغفوراً لكم. قال مورق العجلي لبعض إخوانه في المصلّى يوم الفطر : يرجع هذا اليوم قوم كما ولدتهم أمهاتهم.

وفي حديث أبي جعفر الباقر المرسل « من أتى عليه رمضان فصام نهاره، وصلى ورداً من ليله، وغضّ بصره، وحفظ فرجه ولسانه ويده، وحافظ على صلاته في الجماعة، وبكر الى جمعة، فقد صام الشهر واستكمل الأجر، وأدرك ليلة القدر، وفاز بجائزة الرب ». قال أبو جعفر : جائزة لا تشبه جوائز الأمراء. اذا أكمل الصائمون صيام رمضان وقيامه، فقد وفوا ما عليهم من العمل، وبقي ما لهم من الأجر، وهو المغفرة. فإذا خرجوا يوم عيد الفطر الى الصلاة، قسمت عليهم أجورهم، فرجعوا الى منازلهم وقد استوفوا الأجور واستكملوها.

كما في حديث ابن عباس رضي الله عنهما المرفوع : « إذا كان يوم الفطر هبطت الملائكة الى الأرض، فيقومون على أفواه السكك ينادون بصوت يسمعه جميع خلق الله، إلا الأنس والجن، يقولون : يا أمة محمد اخرجوا الى رب كريم، يعطي الجزيل، ويعفو عن الذنب العظيم، فإذا برزوا الى مصلّاهم يقول الله عزّ وجل لملائكته : يا ملائكتي ما جزاء الأجير إذا عمل عمله ؟ فيقولون : إلهنا وسيدنا أن توفيه أجره. فيقول : إني أشهدكم أني قد جعلت ثوابهم من صيامهم وقيامهم رضائي ومغفرتي، انصرفوا مغفوراً لكم ». خرجه سلمة بن شبيب في كتاب « فضائل رمضان » وغيره، وفي إسناده مقال. وقد روي من وجه آخر عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما موقوفاً بعضه، وقد روي معناه مرفوعاً من وجوه أخر فيها ضعف : من وفى ما عليه من العمل كاملاً وفي له الأجر كاملاً، ومن سلّم ما عليه موفراً نسلّم ما له نقداً لا مؤخراً.

ما بعتكم مهجتي إلّا بوصلكمُ ... ولا أسلّمها إلّا يداً بيدِ
فإن وفيتم بما قلتم وفيتُ أنا ... وإن أبيتم يكونُ الرهن تحت يدي

ومن نقص من العمل الذي عليه، نقص من الأجر بحسب نقصه، فلا يلم إلّا نفسه. قال سلمان : الصلاة مكيال، فمن وفى وفي له، ومن طفّف فقد علمتم ما قيل في المطففين، فالصيام وسائر الأعمال على هذا المنوال، من وفّاها فهو من خيار عباد الله الموفين، ومن طفّف فيها فويل للمطففين. أما

يستحيي من يستوفي مكيال شهواته، ويطفّف في مكيال صيامه وصلاته، ألا بعداً لمدين[1] .

وفي الحديث. « أسوأ الناس سرقة الذي يسرق صلاته » إذا كان الويل لمن طفّف مكيال الدنيا، فكيف حال من طفّف مكيال الدين. ﴿ فويل للمصلين. الذين هم عن صلاتهم ساهون) ﴾[2] .

غداً توفّى النفوس ما كسبت ويحصد الزارعون ما زرعوا
إن أحسنوا فقد أحسنوا لأنفسهم وإن أساؤوا فبئس ما صنعوا

كان السلف الصالح يجتهدون في إتمام العمل وإكماله وإتقانه، ثم يهتمّون بعد ذلك بقبوله ؛ ويخافون من رده. وهؤلاء الذين ﴿ يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة ﴾[3] روي عن علي رضي الله عنه قال : كونوا لقبول العمل أشد اهتماما منكم بالعمل، ألم تسمعوا الله عزّ وجل يقول : ﴿ إنما يتقبّل الله من المتقين ﴾[4] وعن فضالة بن عبيد، قال : لأن أكون أعلم أن الله قد تقبّل مني مثقال حبة من خردل ؛ أحب اليّ من الدنيا وما فيها، لأن الله يقول : ﴿ انما يتقبل الله من المتقين ﴾ قال مالك بن دينار : الخوف على العمل أن لا يتقبّل أشد من العمل. وقال عطاء السلمي[5] : حذر الأتقياء على العمل من أن لا يكون لله. وقال عبد العزيز ابن أبي رواد : أدركتهم يجتهدون في العمل الصالح، فإذا فعلوه وقع عليهم الهم، أيقبل منهم أم لا ؟.

قال بعض السلف : كانوا يدعون الله ستة أشهر أن يبلغهم شهر رمضان، ثم يدعونه ستة أشهر أن يتقبله منهم. خرج عمر بن عبد العزيز رحمه الله في يوم

---

(١) إن المؤلف هنا استحضر أثناء وعظه، ما ذكره الله عن أهل مدين، ونصحاء نبيهم لهم وإعراضهم عن ذلك كما في قوله تعالى : ﴿ وإلى مدين أخاهم شُعيباً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيرهُ ولا تنقصوا المكيال والميزان إني أراكم بخير وإني أخاف عليكم عذاب يوم محيط ﴾ الى قوله تعالى ﴿ كأن لم يغنوا فيها ألا بعداً لمدين كما بعدت ثمود ﴾. سورة هود الآيات ٨٤ ـ ٩٥.

(٢) سورة الماعون الآية ٤، ٥.

(٣) سورة المؤمن الآية ٦٠.

(٤) سورة المائدة الآية ٢٧.

(٥) لعله عطاء بن مسلم بن ميسر الخرساني وكان مشهوراً في الجهاد والتعبد توفي سنة ١٣٥ هـ. ولا يبعد أن يكون عطاء بن دينار المفسر، المتوفى سنة ١٢٦ هـ.

عيد الفطر، فقال في خطبته : أيها الناس انكم صمتم لله ثلاثين يوما، وقمتم ثلاثين ليلة، وخرجتم اليوم تطلبون من الله أن يتقبّل منكم. كان بعض السلف يظهر عليه الحزن يوم عيد الفطر، فيقال له : انه يوم فرح وسرور، فيقول : صدقتم، ولكني عبد أمرني مولاي أن أعمل له عملا، فلا أدري أيقبله مني أم لا ؟ رأى وهيب ابن الورد قوماً يضحكون في يوم عيد فقال : إن كان هؤلاء تقبل منهم صيامهم، فما هذا فعل الشاكرين، وان كان لم يتقبّل منهم صيامهم، فما هذا فعل الخائفين. وعن الحسن قال : إن الله جعل شهر رمضان مضماراً لخلقه، يستبقون فيه بطاعته الى مرضاته، فسبق قوم ففازوا، وتخلّف آخرون فخابوا، فالعجب من اللاعب الضاحك في اليوم الذي يفوز فيه المحسنون، ويخسر فيه المبطلون.

لعلـك غضبـان وقلبـي غافــل   سلام على الدارين إن كنت راضيا

روي عن علي رضي الله عنه : انه كان ينادي في آخر ليلة من شهر رمضان، يا ليت شعري من هذا المقبول فنهنّيه، ومن هذا المحروم فنعزيه، وعن ابن مسعود انه كان يقول : من هذا المقبول منا فنهنيه، ومن هذا المحروم منا فنعزيه. أيها المقبول هنيئاً لك، أيها المردود جبر الله مصيبتك.

ليتَ شعري مَنْ فيه يُقبل منا ؟   فيهنـا يـا خيبـة المـردودِ
مـن تولّـى عنـه بغيـر قَبـول   أرغـم الله أنفـه بخـزي شـديـد

ماذا فات من فاته خير رمضان ؟ وأي شيء أدرك من أدركه فيه الحرمان ؟ كم بين من حظه فيه القبول والغفران، ومن كان حظه فيه الخيبة والخسران. رب قائم حظه من قيامه السهر، وصائم حظه من صيامه الجوع والعطش.

ما أصنـع ؟ هكـذا جرى المقـدور   الجبـر لغيـري وأنـا المكسـورُ
أسيـر ذنـب مقيـد مهجـــور   هـل يمكـن أن يغيّـر المقـدور

وقال غيره :

ســار قــوم والشقـا يُقعدنــي   حــازوا القـرب والجفـا يُبعدنـي
حسبي حسبي الى متى تطردنـي   أعـداي دائـي وكلهـم يقصدنـي

وقال غيره :

أسباب هـواكَ أوهنـت أسبابي   من بعد جفـاك فالضنى أولى بيّ

ضاقت بي حيلي وأنت تدري ما بي فارحم فالعبد واقف بالباب

شهر رمضان تكثر فيه أسباب الغفران، فمن أسباب المغفرة فيه :

صيامه، وقيامه، وقيام ليلة القدر فيه كما سبق.

ومنها : تفطير الصوام، والتخفيف عن المملوك، وهما مذكوران في حديث سلمان المرفوع.

ومنها : الذكر. وفي حديث مرفوع : « ذاكر الله في رمضان مغفور له ».

ومنها : الاستغفار، والاستغفار : طلب المغفرة، ودعاء الصائم مستجاب في صيامه، وعند فطره، ولهذا كان ابن عمر اذ أفطر يقول : اللهم يا واسع المغفرة اغفر لي. وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه المرفوع في فضل شهر رمضان. « ويغفر فيه الا لمن أبى » قالوا : يا أبا هريرة ومن يأبى ؟ قال : يأبى أن يستغفرَ الله.

ومنها : استغفار الملائكة للصائمين حتى يفطروا، وقد تقدم ذكره، فلمّا كثرت أسباب المغفرة في رمضان، كان الذي تفوته المغفرة فيه محروماً غاية الحرمان.

وفي « صحيح ابن حبان » عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ صعد المنبر فقال : « آمين آمين آمين »، قيل : يا رسول الله، انك صعدت المنبر فقلت : « آمين آمين آمين »، فقال : « ان جبريل أتاني فقال : من أدرك شهر رمضان فلم يغفر له فدخل النار فأبعده الله، قل : آمين، فقلت. آمين، ومن أدرك أبويه أو أحدهما فلم يبرهما فمات فدخل النار فأبعده الله قل : آمين، فقلت : آمين، ومن ذُكرت عنده فلم يصل عليك فمات فدخل النار فأبعده الله، قل : آمين، فقلت : آمين ».

وخرجه الإمام أحمد والترمذي وابن حبان أيضاً من وجه آخر : عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً بلفظ « رغم أنفه » وحسنه الترمذي.

وقال سعيد عن قتادة. كان يقال : من لم يغفر له في رمضان فلن يغفر فيما سواه. وفي حديث آخر « اذا لم يغفر له في رمضان، فمتى يغفر لمن لا يغفر له في هذا الشهر ؟ ». ومتى يقبل من رد في ليلة القدر ؟ متى يصلح من لا يصلح في رمضان ؟ متى يصح من كان من داء الجهالة والغفلة مرضان ؟ كل

ما لا يثمر من الأشجار في اوان الثمار، فإنه يقطع ثم يوقد في النار، من فرط في الزرع في وقت البذار، لم يحصد يوم الحصاد غير الندم والخسار.

ترحلّ شهرُ الصبر وآلهفاه وانصرما ... واختُص بالفوز في الجنات من خَدما
وأصبح الغافل المسكين منكسراً ... مثلي فيا ويحه يا عُظم ما حُرما
من فاته الزرع في وقت البذار فما ... تراه يحصد إلّا الهمَّ والندما
طوبى لمن كانت التقوى بضاعته ... في شهره وبحبل الله معتصماً

« شهر رمضان، شهر أوله رحمة، وأوسطه مغفرة، وآخره عتق من النار ». وروي هذا عن النبي ﷺ من حديث سلمان الفارسي، خرجه ابن خزيمة في « صحيحه ». وروي عنه أيضاً، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، خرجه ابن أبي الدنيا وغيره.

والشهر كله شهر رحمة ومغفرة وعتق، ولهذا في الحديث الصحيح : « أنه تفتح فيه أبواب الرحمة » وفي الترمذي وغيره : « إن لله عتقاء من النار، وذلك كل ليلة » ولكن الأغلب على أوله الرحمة، وهي للمحسنين المتقين، قال الله تعالى : ﴿ إن رحمة الله قريب من المحسنين ﴾ [١] وقال الله تعالى : ﴿ ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون ﴾ [٢].

فيفاض على المتقين في أول الشهر خلع الرحمة والرضوان، ويعامل أهل الإحسان بالفضل والاحسان.

وأما أوسط الشهر فالأغلب عليه المغفرة، فيغفر فيه للصائمين، وإن ارتكبوا بعض الذنوب الصغائر فلا يمنعهم من المغفرة، كما قال الله تعالى : ﴿ وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم ﴾ [٣] .

وأمّا آخر الشهر فيعتق فيه من النار من أوبقته الأوزار، واستوجب النار، بالذنوب الكبار.

وفي حديث ابن عباس المرفوع : « لله في كل ليلة من شهر رمضان عند الافطار ألف ألف عتيق من النار كلهم قد استوجبوا النار، فإذا كان آخر ليلة

---

(١) سورة الأعراف الآية ٥٦ .

(٢) سورة الأعراف الآية ١٥٦ .

(٣) سورة الرعد الآية ٦ .

من شهر رمضان أعتق الله في ذلك اليوم بعدد ما أعتق من أول الشهر إلى آخره » وخرجه سلمة بن شبيب وغيره.

وإنما كان يوم الفطر من رمضان عيداً لجميع الأمة، لأنه يعتق فيه أهل الكبائر من الصائمين من النار، فيلتحق فيه المذنبون بالأبرار، كما أن يوم النحر هو العيد الأكبر، لأن قبله يوم عرفة، وهو اليوم الذي لا يرى في يوم من الدنيا أكثر عتقاً من النار منه، فمن أعتق من النار في اليومين، فله يوم عيد، ومن فاته العتق في اليومين فله في يوم وعيد.

ليس عيد المحب قصدُ المُصلّى ... وانتظار الأمير والسلطان
إنما العيد أن تكون لدى الله ... كريماً مُقرّباً في أمان

ورؤي بعض العارفين ليلة عيد في فلاة يبكي على نفسه وينشد :

سرورُ العيد قد عم النواحي ... وحُزني في ازدياد لا يَبيد
فإن كنت اقترفت خلال سوء ... فعذري في الهوى أن لا أعود

لما كانت المغفرة والعتق كل منهما مرتباً على صيام رمضان وقيامه، أمر الله سبحانه وتعالى عند إكمال العدة بتكبيره وشكره، فقال : ﴿ ولتكملوا العدة ولتكبروا الله على ما هداكم ولعلكم تشكرون ﴾[1] فشكر من أنعم على عباده بتوفيقهم للصيام، وإعانتهم عليه، ومغفرته لهم به، وعتقهم من النار، أن يذكروه ويشكروه، ويتقوه حق تقاته. وقد فسّر ابن مسعود رضي الله عنه تقواه حق تقاته : بأن يطاع فلا يعصى، ويذكر فلا ينسى، ويشكر فلا يكفر.

فيا أرباب الذنوب العظيمة، الغنيمة الغنيمة في هذه الأيام الكريمة، فما منها عوض، ولا لها قيمة، فمن يعتق فيها من النار فقد فاز بالجائزة العظيمة، والمنحة الجسيمة. يا من أعتقه مولاه من النار، إياك أن تعود بعد أن صرت حراً الى رقّ الأوزار، أيبعدك مولاك من النار وأنت تتقرّب منها ؟ وينقذك منها وأنت توقع نفسك فيها، ولا تحيد عنها ؟

وإن امرءاً ينجو من النار بعدما ... تزوّد من أعمالها لسعيد

ان كانت الرحمة للمحسنين، فالمسيء لا ييأس منها، وان تكن المغفرة

(١) سورة البقرة الآية ١٨٥.

مكتوبة للمتقين، فالظالم لنفسه غير محجوب عنها.

إن كان عفوك لا يرجوه ذو خطأٍ فمن يجود على العاصين بالكرم ؟

وقال غيره :

إن كان لا يرجوكَ إلّا مُحسن فمن الذي يرجو ويدعو المذنب

لم لا يُرجى العفو من ربنا ؟ وكيف لا يطمع في حلمه، وفي « الصحيح » « أنه بعبده أرحم من أمه » ؟! ﴿قل يا عباديَ الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً﴾[1].

فيا أيها العاصي ـ وكلنا ذلك ـ لا تقنطمن رحمة الله بسوء أعمالك، فكم يعتق من النار في هذه الأيام من أمثالك، فأحسن الظن بمولاك، وتب إليه فإنه لا يهلك على الله إلا هالك.

إذا أوجعتك الذنوب فداوها برفع يد في الليل والليلُ مظلمُ
ولا تقنطن من رحمة الله إنما قُنوطك منها من ذنوبك أعظم
فرحمته للمحسنين كرامة ورحمته للمذنبين تكرُّم

ينبغي لمن يرجو العتق في شهر رمضان من النار، أن يأتي بأسباب توجب العتق من النار، وهي متيسرة في هذا الشهر. وكان أبو قلابة يعتق في آخر الشهر جارية حسناء مزينة، يرجو بعتقها العتق من النار.

وفي حديث سلمان الفارسي المرفوع الذي في « صحيح ابن خزيمة » : « من فطّر فيه صائماً كان له عتقاً من النار، ومن خفف فيه عن مملوكه كان له عتقاً من النار » وفيه أيضاً : « فاستكثروا فيه من أربع خصال : خصلتين تُرضون بهما ربكم، وخصلتين لا غناء بكم عنهما، فأما الخصلتان اللتان ترضون بهما ربكم : فشهادة أن لا إله إلّا الله، والاستغفار. وأمّا اللتان لا غناء لكم عنهما : فتسألون الله الجنّة وتستعيذون به من النار ».

فهذه الخصال الأربعة المذكورة في هذا الحديث، كل منها سبب للعتق والمغفرة، فأما كلمة التوحيد، فإنها تهدم الذنوب وتمحوها محواً، ولا تبقي ذنباً، ولا يسبقها عمل، وهي تعتق عدل عتق الرقاب الذي يوجب العتق من النار، ومن

(١) سورة الزمر الآية ٥٣.

أتى بها أربع مرات : حين يصبح وحين يمسي، أعتقه الله من النار، ومن قالها مخلصاً من قلبه، حرمه الله على النار.

وأما كلمة الاستغفار، فمن أعظم أسباب المغفرة، فإن الاستغفار دعاء بالمغفرة، ودعاء الصائم مستجاب في حال صيامه، وعند فطره، وقد سبق حديث أبي هريرة المرفوع « ويغفر فيه » يعني : شهر رمضان « إلّا لمن أبى » قالوا يا أبا هريرة : ومن يأبى ؟ قال : من أبى أن يستغفر الله عزّ وجلّ.

قال الحسن : أكثروا من الاستغفار، فإنكم لا تدرون متى تنزل الرحمة.

وقال لقمان لابنه : يا بني عوّد لسانك الاستغفار، فإن لله ساعات لا يرد فيهن سائلاً.

وقد جمع الله بين التوحيد والاستغفار في قوله تعالى : ﴿ فاعلم أنه لا إله إلّا الله واستغفر لذنبك ﴾[1] وفي بعض الآثار، أن إبليس قال : أهلكت الناس بالذنوب، وأهلكوني بـ : لا إله إلّا الله والاستغفار، والاستغفار ختام الأعمال الصالحة كلها، فتختم به الصلاة، والحج، وقيام الليل، وتختم به المجالس، فإن كانت ذكراً كان كالطابع عليها، وإن كانت لغواً كانت كفارة لها، فلذلك ينبغي أن تختم صيام رمضان بالاستغفار.

وكتب عمر بن عبد العزيز الى الأمصار يأمرهم بختم رمضان بالاستغفار، وصدقة الفطر، فإن صدقة الفطر طهرة للصائم من اللغو والرفث، والاستغفار يرقع ما تخرّق من الصيام باللغو والرفث، ولهذا قال بعض العلماء المتقدمين : إن صدقة الفطر للصائم كسجدتي السهو للصلاة. وقال عمر بن عبد العزيز في كتابه :

قولوا كما قال أبوكم آدم : ﴿ ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين ﴾[2].

وقولوا كما قال نوح عليه السلام : ﴿ وإلا تغفر لي وترحمني أكن من الخاسرين ﴾[3].

---

(١) سورة محمد الآية ١٩.

(٢) سورة الأعراف الآية ٢٣.

(٣) سورة هود الآية ٤٧.

وقولوا كما قال موسى عليه السلام : ﴿ ربِّ إني ظلمت نفسي فاغفر لي ﴾[1] .

وقولوا كما قال ذو النون عليه السلام : ﴿ سبحانك إني كنت من الظالمين ﴾[2] .

ويروى عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : الغيبة تخرق الصيام، والاستغفار يرقعه، فمن استطاع منكم أن يجيء بصوم مرقّع فليفعل.

وعن ابن المُنْكدِر :[3] معنى ذلك : الصيام جُنة من النار ما لم يخرقها، والكلام السيء يخرق هذه الجُنة، والاستغفار يرقع ما تخرق منها.

فصيامنا هذا يحتاج الى استغفار نافع، وعمل صالح له شافع، كم نخرق صيامنا بسهام الكلام، ثم نرقعه، وقد اتسع الخرق على الراقع، كم نرفو خروقه بمخيط الحسنات، ثم نقطعه بحسام السيئات القاطع. كان بعض السلف إذا صلى صلاة استغفر فيها من تقصيره فيها، كما يستغفر المذنب من ذنبه.

إذا كان هذا حال المحسنين في عباداتهم، فكيف حال المسيئين مثلنا في عباداتهم ارحموا مَنْ كانت حسناته كلها سيئات، وطاعته كلها غفلات.

استغفر الله من صيامي طولَ زماني ومن صلاتي
صيامنا كله خُروق وصلاتنا أيما صلاة
مستيقظ في الدجى ولكن أحسن من يقظتي سَناتي

وقريب من هذا أمر النبي ﷺ لعائشة رضي الله عنها في ليلة القدر بسؤال العفو، فإن المؤمن يجتهد في شهر رمضان في صيامه وقيامه، فإذا قرب ذراعه، وصادف ليلة القدر، لم يسأل الله تعالى إلّا العفو، كالمسيء المقصر.

كان صلة بن أشيم يحيي الليل ثم يقول في دعائه عند السحر : اللهم إني

---

(١) سورة القصص الآية ٦٥.

(٢) سورة الأنبياء الآية ٨٧.

(٣) هو محمد بن المنكدر القرشي التيمي، تابعي من أهل العلم والثقة والزهد، عاش في المدينة وتوفي سنة ١٣٠ هـ.

أسألك أن تجيرني من النار، ومثلي يجترئ أن يسألك الجنة ؟.

كان مطرّف يقول : اللهم ارض عنا، فإن لم ترض عنا فاعف عنا.

قال يحيى بن مُعاذ : ليس بعارف من لم يكن غاية أمله من الله العفو.

إن كنت لا أصلح للقرب فشأنكم عفوٌ عن الذنب

أنفع الاستغفار ما قارنته التوبة، وهي : حل عقدة الإصرار، فمن استغفر بلسانه، وقلبه على المعصية معقود، وعزمه أن يرجع الى المعاصي بعد الشهر ويعود، فصومه عليه مردود، وباب القبول عنه مسدود.

قال كعب : من صام رمضان وهو يحدّث نفسه أنه إذا أفطر بعد رمضان أنه لا يعصي الله دخل الجنة بغير مسألة ولا حساب، ومن صام رمضان وهو يحدّث نفسه إذا أفطر بعد رمضان عصى ربه، فصيامه عليه مردود، خرجه سَلَمَة. ابن شبيب[1].

ولولا التُّقى ثم النُّهى خشية الرَّدى لعاصيت في وقت الصبا كل زاجر
قضى ما قضى فيما مضى ثم لا يرى له عودة أخرى الليالي الغوابر

وفي « سنن أبي داود » وغيره عن أبي بكرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « لا يقولنّ أحدكم : صمت رمضان كله، ولا قمت رمضان كله » قال

قال أبو بكر : فلا أدري أكره التزكية، أم لا بد من غفلة.

أين من كان إذا صام صان الصيام، وإذا قام استقام في القيام، أحسنوا الإسلام ثم رحلوا بسلام، وما بقي إلا من إذا صام افتخر بصيامه وصال، وإذا قام عجب بقيامه وقال. كم بين خليّ وشجيّ، وواجد وفاقد، وكاتم ومبدي.

وأما سؤال الجنة والاستعاذة من النار، فمن أهم الدعاء. وقال النبي ﷺ : « حولها ندندن » فالصائم يرجى استجابة دعائه، فينبغي أن لا يدعو إلا بأهم الأمور، قال أبو مسلم : ما عرضت لي دعوة إلا صرفتها إلى الاستعاذة من النار. وقال تعالى :

---

(١) هو سَلَمَة بن شبيب النيسابوري المِسمَعي، جدّ في طلب الحديث، وكتب كثيراً، وكانت وفاته ٢٤٧ هـ. قال عنه في التقريب : ثقة.

﴿ لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة أصحاب الجنة هم الفائزون ﴾[1].

وفي الحديث : « تعرضوا لنفحات رحمة ربكم، فإن لله لنفحات من رحمته يصيب بها من يشاء من عباده » فمن أصابته سعد سعادة لا يشقى بعدها أبداً، فمن أعظم نفحاته مصادفة دعوة الإجابة، يسأل العبد فيها الجنة والنجاة من النار، فيجاب سؤاله فيفوز بسعادة الأبد. قال الله تعالى : ﴿ فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز ﴾[2] وقال : ﴿ فأما الذين شقوا ففي النار لهم فيها زفير وشهيق ﴾[3] إلى قوله : ﴿ وأما الذين سعدوا ففي الجنة ﴾[4] .

ليس السعيد الذي دنياه تسعده   إن السعيد الذي ينجو من النار

عباد الله : إن شهر رمضان قد عزم على الرحيل، ولم يبق منه إلا القليل، فمن كان منكم أحسن فيه فعليه بالتمام، ومن كان فرط فليختمه بالحسنى فالعمل بالختام، فاستغنموا منه ما بقي من الليالي اليسيرة والأيام، واستودعوه عملاً صالحاً يشهد لكم به عند الملك العلام، وودعوه عند فراقه بأزكى تحية وسلام.

سلام من الرحمن كل أوان   على خير شهر قد مضى وزمان
سلام على شهر الصيام فإنه   أمان من الرحمن أي أمان
لئن فنيت أيامك الغرّ بغتة   فما الحزن من قلبي عليك بفان

لقد ذهبت أيامه وما أطعتم، وكتبت عليكم فيه آثامه وما صنعتم، وكأنكم بالمشمرين فيه وقد وصلوا وانقطعتم، أترى ما هذا التوبيخ لكم ؟ أو ما سمعتم ؟

وما ضاع من أيامنا هل يقوّم   فهيهات والأزمان كيف تقوّم
ويوم بأرواح يباع ويشترى   وأيام وقت لا تُسام بدرهم

قلوب المتقين الى هذا الشهر تحنّ، ومن ألم فراقه تئن.

دهاك الفراق فما تصنع   أتصبر للبين أم تجزع

---

(١) سورة الحشر الآية ٢٠ .
(٢) سورة آل عمران الآية ١٨٥ .
(٣) سورة هود الآية ١٠٦ .
(٤) سورة هود الآية ١٠٨ .

إذا كنت تبكي وهم جيرةٌ فكيف تكون إذا ودّعوا

كيف لا تجري للمؤمنين على فراقه دموع، وهو لا يدري هل بقي له في عمره اليه رجوع ؟!

تذكرت أياماً مضت ولياليا خلت فجرت من ذكرهنّ دموع
ألا هل لها يوماً من الدهر عودة وهل لي إلى يوم الوصال رجوع
وهل بعد إعراض الحبيب تواصل وهل لبدور قد أفَلْن طلوع

وقال غيره :

أسمع أنين العاشقيـ ـن إن استطعت له سماعاً
راح الحبيب فشيعتـ ـه مدامع ذرفت سراعاً
لو كلّف الجبل الأصمـ ـم فراق إلف ما استطاعا

أين حرق المجتهدين في نهاره، أين قلق المتهجدين في أسحاره. إذا كان هذا من ربح فيه، فكيف حال من خسر في أيامه ولياليه ؟ ماذا ينفع المفرّط فيه بكاؤه وقد عظمت فيه مصيبته، وجلّ عزاؤه ؟ كم نصح المسكين فما قبل النصح، كم دعي الى المصالحة فما أجاب الى الصلح، كم شاهد الواصلين فيه وهو متباعد، كم مرّت به زمر السائرين وهو قاعد، حتى إذا ضاق به الوقت وحاق به المقت، ندم على التفريط حين لا ينفع الندم، وطلب الاستدراك في وقت العدم.

أتترك من تحب وأنت جار ؟ وتطلبهم وقد بعد المزار
وتبكي بعد نأيهم اشتياقاً وتسأل في المنازل أين ساروا
تركت سؤالهم وهم حضور وترجو أن تخبّرك الديار
فنفسك لم ولا تلم المطايا ومُتْ كمداً فليس لك اعتذار

يا شهر رمضان ترفّق، دموع المحبين تدفّق، قلوبهم من ألم الفراق تشقق، عسى وقفة الوداع تطفئُ من نار الشوق ما أحرق، عسى ساعة توبة وإقلاع ترقع من الصيام ما تخرق، عسى منقطع عن ركب المقبولين يلحق، عسى أسيرُ الأوزار يطلق، عسى من استوجب النار يعتق.

عسى وعسى من قبل يوم التفرق   إلى كل ما نرجو من الخير نرتقي
فيجبر مكسور ويقبل تائب   ويعنى خطّاء ويسعد من شقي

والله أسأل أن يجعل القصد خالصاً لوجهه الكريم، ومعونة على طاعة السميع العليم، وهو حسبنا ونعم الوكيل، وصلّى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين، وسلم تسلمياً كثيراً إلى يوم الدين.



الفهرس

الموضوع | صفحة